السلسلة العمالية

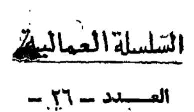
العدد - ٢٦ -

تقدمية الإسلام
وعالمنا المتطور



عبد المغني سعيد





السلسلة العمالية

العـــدد - ٢٦ -

تقدمية الإسلام

وعالمنا المتطور

عبد المغني سعيد

هذه السـلسلة

تصـدرها المؤسسة الثقافية العمـالية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة العربية الثانية

لئن كان هذا هو الكتاب الأول فى السلسلة العمالية الذى يتناول تعاليم الدين والقيم الروحية كمقومات أساسية للمجتمع فى كل العصور ، ومع أن ترتيبه قد جاء السادس والعشرين فى السلسلة ، فليس معنى هذا أن المؤسسة قد وضعت هذا الموضوع البالغ الأهمية فى مرتبة متأخرة من أولويات برنامجها للنشر . والحق أننا كنا نهتم منذ البداية بسد هذا الفراغ فى السلسلة ، وطلبنا من بعض كتابنا الاسلاميين أن يضعوا لنا كتابا مركزا يمكن أن يرجع اليه الدارسون ، ليس كمرجع لمحاضرة واحدة أو محاضرتين ، وانما كأساس عقائدى يرجع الدارسون والمحاضرون الى أبوابه المنوعة فى المحاضرات الأخرى . وذلك لأننا نعتقد أن الدين ليس بالشىء المعزول عن المجتمع ، ولكنه مقومة أساسية له وعامل مؤثر فعال فى شتى ميادينه ومختلف نظمه وأوضاعه .

ولما كان هذا الكتاب قد قصد به عند اصداره لأول مرة باللغة الانجليزية أن يؤدى هذا الغرض باسلوب علمى وعصرى يعطى للمسلم وغير المسلم صورة واضحة عن مضمون الاسلام ومبادئه

العامة مبرزا صلاحيتها اجمالا لكل مجتمع ولكل عصر ، فانى رأيت أن أعيد طبعه في هذه السلسلة مع ادخال بعض الاضافات فى المواضع المناسبة ، وانه لمن حسن التوفيق أن يبدأ طبعه فى غرة المحرم مع مستهل عام هجرى جديد . والله أسأل ان يهدينا سواء السبيل ، وأن يوفقنا الى ان نعيش هذه المبادىء والقيم تاركين الى غير رجعة ذلك الانسياق الأعمى وراء مدنيـــة الغرب المـادية المظهرية وما ينفث فى نفوسنا من مؤثرات سلبية تضعف من ارتباطنا بتراثنا الاسلامى المجيد .

عبد المغنى سعيد

مقدمة الطبعة العربية الأولى

الحمد لله الذى هدانى الى اعداد هذا الكتاب بلغة أجنبية واسعة الانتشار ألا وهى اللغة الانجليزية الشائعة الاستعمال فى الحقل الدبلوماسى وفى ميدان الأعمال . وأشكره سبحانه وتعالى أن هيأ لى من الفراغ غير الاختيارى عاما كاملا كرسته راضيا سعيدا لكتابة فصول هذا البحث ، ثم تعريبها فيما بعد ، فى شبه عزلة عن الناس بعيدا عن زحمة العمل واجب الحياة وصخبها والحق انى كنت أنعم كلما أنجزت فصلا من فصول هذا الكتاب بشعور من السكينة وانشراح الصدر بأنى قد وفيت جانبا من العهد الذى قطعته على نفسى ، بعد أن خاننى التوفيق فى تهيئة الفراغ الكافى لكتابته بالأمس رغم اهتمامى القديم بشئون الاسلام ذلك الاهتمام الذى أخذته عن والدى ، وقد رأيته ، فى صباى يحارب البدع ، والخرافات ، ويعقد الندوات الدينية مع أصدقائه من كبار العلماء . وكان أول من أقدم على اعداد تصنيف موضوعى لآيات القرآن الكريم (١) ولم يكن والدى رحمه الله من رجال الدين ، بل كان رجلا عاديا آمن بالاسلام وعاشه وترك لأبنائه حرية التفكير والاختيار ، فجاء ايمانى بالاسلام عن عمق فى الدراسة وقوة اقتناع .

(١) كتاب ترتيب آيات القرآن الكريم فى أبواب الدين القويم » للاستاذ سلامة محمد .

وليست هذه أول مرة أتصدى فيها للكتابة فى موضوعات الدين ، فقد نشرت عام ١٩٤١ مقالين فى مجلة النهار الأزهرية عن مذاهب الاسلام الاقتصادية ، والصلاة وضرورات العصر . كما أبديت اهتماما فى كتاب ((**آن لهذا الشعب أن يفهم**)) عام ١٩٥٢ بتحليل الاتجاه الاسلامى ضمن الاتجاهات الفكرية التى تجاذبت مجتمعنا المصرى فى فترة ما قبل الثورة ، موجها عناية خاصة الى **تعاليم الاشتراكية الاسلامية ومقارنتها بالاشتراكية المعاصرة** . ولم ألبث أن عدت فيما بعد الى طرق هذا الموضوع تفصيلا فى كتابى ((**الاسلام والأصول الفكرية للاشتراكية العربية**)) .

وهكذا لم يكن اهتمامى بدراسة الاسلام ليتوقف لحظة ، **وشاركتنى زوجتى الفاضلة** فى هذا الاهتمام وما أكثر ما شعرنا طوال أسفارنا بالخارج واحتكاكنا بالكثيرين من الأجانب بمسيس الحاجة الى **اصدار كتب باللغات الأجنبية لتعريف أهل هذا العصر بالاسلام على حقيقته كدعوة تقدمية بعث بها الله لتهدى عالما دائب التطور بفضل مبادئها العامة المتسمة بالشمول والبساطة والمرونة، والقادرة بذلك على مواجهة تطور الظروف وتنظيم حياة البشر فى كل عصر !** ولقد رأيت مدفوعا بالواجب وبتشجيع من شريكة حياتى أن أسهم فى هذا العمل الطيب كرجل يجمع بين الثقافتين الاسلامية والغربية الحديثة ، ومارس الكتابة بالانجليزية والخطابة بها فى المؤتمرات الدولية زمنا غير قصير ، ولمس عن قرب طوال أسفاره المتعددة ، الأركان المظلمة لعدم التوازن بين التقدم المادى للانسانية وتقدمها الروحى فى عصر مغرق فى المادية والفردية ، ولا تنى تتلاعب بأهله موجات الفساد وضعف الايمان بل الالحاد !

ولقد تقدم العالم منذ اختراع الآلة وقيام الثورة الصناعية وانطلاق الرأسمالية الحديثة فى أوائل القرن التاسع عشر تقدما ماديا بعيد الغور والمدى . ولم يكن مثل هذا التقدم ليتم بدون

تضحيات ، فقد كلفت النتائج السلبية التى اكتنفت سيره الانسانية الكثير من الآلام ! ومرجع ذلك أولا وآخرا الى عدم التوازن بين هذا التقدم المادى والتقدم الروحى للانسان ! فالجشع الرأسمالى واتساع آفاق استغلال الانسان لأخيه الانسان تحت سقف المصنع الآلى ، والسباق الاستعمارى المثير سعيا وراء الخامات والموارد البشرية ، وطغيان القيم المادية والفردية على أساليب تفكير وتصرف غالبية الناس ، وتذويبها للكثير من تقاليد المجتمع الحميدة .. كل هذه السلبيات وما شابهها أو تفرع منها ، لم تكن لتحدث لولا عدم التوازن المذكور . وان هى فى واقع الأمر الا مظاهر لانحسار القيم الروحية والخلقية وضعف الوازع الداخلى نتيجة لضعف الايمان !

ولقد أدرك الناس أخيرا خطورة مثل هذا الوضع غير المتزن ، فطفقوا يتحدثون عن وجوب الاحتفاظ بالتوازن الواجب بين التقدم المادى أو الاقتصادى والفنى للجماعة الانسانية وبين تقدمها الروحى أو الاجتماعى . وحاولت حركة الترشيد التى طورت الاقتصاد والفكر الاقتصادى تطويرا خطيرا بالغ الأثر فى الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ، والتى يسميها البعض **بالثورة الصناعية الثانية** ، أن تعالج هذا الوضع فتضمنت فلسفة اجتماعية تستوجب أن يكون التقدم الاقتصادى والفنى مصحوبا بتقدم اجتماعى مماثل، بحيث لايوجه هذا التقدم لمصلحة أفراد قلائل بل لمصلحة الانسانية جمعاء . فاستطاعت هذه الحركة أن تتلافى بذلك الكثير من سلبيات **الثورة الصناعية الأولى** .. تلك السلبيات التى نجمت عن اقامة الاقتصاد على أسس مادية بحتةوتجريده من أية عوامل أو ارتباطات اجتماعية أو خلقية أو سياسية . **كما حاولت حركة الترشيد مخلصة أن تحل العقلية الانتاجية الخيرة محل العقلية الاستغلالية الباغية** ، وأن تقيم النشاط الاقتصادى على أساس مشترك من تبادل الخدمات فى ظل ما يمكن أن يسمى بدورة العطاء الخيرة .

ومن جهة أخرى تفشت بين النشء فى هذا العصر أمـراض الانحراف والقلق والميوعة والسلبية وعدم الاكتراث أو اللامبالاة على نحو الشـكوك بالنسبـة لمستقبل الأجيـال المقبلة . الأمر الذى بدأ ينبه الـكثير من الـكتاب الى خطورة ترك القيم والضوابط الخلقية تضعف وتنحسر فى عالم كاد يتخلى تماما عن الايمان ، بعد أن أخذ الغرور منه مأخذه وظن أهله أنهم يستطيعون بالقدر اليسير الذى بلغوه من العـلم ان يهيمنوا على أقـدارهم بارادتهم المطلقة الجامحة دون الاستعانة بهداية الله عز وجل .

واذا كان العالم بعد أن دفعت به الفلسـفات المـادية وغرور العلم الى هذا الطريق الشائك المحفوف بالمخاطر والمهدد بالفناء الشامل ، قد اتسعت الشقة بينه وبين القيم الروحية والخلقية المنبثقة عن الأديان . فهذا لا يعنى أن الدين قد اصبح فكرة عتيقة لا مكان لها فى غير المتاحف ، وأن التقـدم العلمى والفنى الذى حققـه الانسان فى عصر الذرة والفضاء لابد أن يطرح جانبا تلك المعتقدات المثالية الحالمة التى تعلق بها الناس قبل نضوجهم الفكرى وقت استغراقهم فى متـاهات ما وراء الطبيعة وأسرار الكون ! أن فكرة الدين وما تنطوى عليه من قيم ودوافع روحية وخلقية ايجابية بناءة فكرة حية خالدة لايمكن أن تطرح جانبا أو تموت ، ولا غنى عنها للانسانية مهما بلغت من تقدم ، وذلك لسبب بسيط واضح وهو أن الدين لا يقف موقف العداء من التقدم بل يباركه ويدعو اليه ! ولم يكن ظهور العقائد الدينية التجريدية بعد التخبطات المبنية على الرمزية والوساطة فى عصور ما قبل الأديان الا مرحلة هامة من مراحل تقدم الفكر الانسانى . وهى تدل **كما سنوضح فى هذا الـكتاب على أن الدين قد انبثق عن تقدم الفكر والعلم ولم ينبثق عن السحر والخرافة** . ونحن اذ نتناول فـكرة الدين فى كتابنا هذا انما نتناولها كفكرة حية متطورة ، وقد بلغ تطورها

قمته وغايته بظهور الاسلام الذى أكمل للانسانية دينها ووضع لها من المبادىء العامة مايحفزها على التقـدم باطراد والاستزادة من العلم والمعرفة ، ولـكن مع التزام جانب الحكمة دائمـا ، دون شطط أو جمود أو انحراف !

ليس الغرض من هذا الـكتاب الدعاية العاطفية أو المباشرة للاسلام ، بل هـو دعوة مخلصة للعودة الى الايمـان ، ودراسـة موضوعية ، واقعية وعلمية ، لتعاليم الاسـلام ومبادئه ونظمه . ونرجو أن نكون قد وقفنا بالتزامنا للأسلوب العلمي دون العاطفى الى اعطاء القـارىء صورة حركية ايجابية للاسـلام كعقيـدة ، وأسلوب حياة ، ونظام دولة ، ودستور شامل للانسانية جمعاء ! وما كنا لنهتم ، وهذا منهجنـا الايجابى والموضوعى ، بالسلبيات أو بالرد على حملات التضليل التى يقوم بها خصوم الاسلام ضده ورسوله لاعتقادنا أن نجاحنـا فى اعطاء مثل هذه الصورة الحركية الايجابية كفيل بان يجب تلقائيا مثل هذه السلبيات ! .

ولهذا لم نخصص أحد فصول هذا الكتاب للدفاع عن الاسلام ضد مثل هذه الحملات السـلبية المضللة ، كما فعل بعض الكتاب المسلمين الذين أرادوا مخلصين أن يوضحوا الحقائق لغير المسلمين . كما لم نخصص فصلا لحياة **الرسول محمد** مكتفين بالاشارة الى جوانب عدة متنوعة من حياته وكفاحه فى المواضع المناسـبة من فصول الكتاب . وذلك تمشـيا مع مبدأ لا ذاتية الأنبياء الذى أبرزناه فى الفصل الثالث الخاص بطبيعة الرسل ووظيفتهم ، والذى يبدو أكثر وضوحـا فى الاسلام منه فى أى دين آخر . ولا يحسبن أحد اننا نقلل بذلك من شأن محمد ، أو نضن على ذكراه العطرة بفصل قائم بذاته ، فحسب محمد أنه خاتم الأنبياء ، وأنه الرسـول الذى اصطفاه الله لاكمال رسـالة الدين للعالمين ، أى للانسـانية جمعاء وليس لقوم معينين بذاتهم شأن من تقدمه من

الأنبياء الذين أرسلهم الله لهداية قومهم فى عصور متعاقبة ، ولم تكن رسالاتهم سوى مراحل متتالية فى الطريق الى الكمال . لقد عاش محمد الاسلام عقيدة وأسلوب حياة فأرسى قولا وعملا المقومات الخلقية للمجتمع الانسانى الأفضل ، وضرب كأول حاكم للدولة الاسلامية أنبل مثل للحاكم الديمقراطى الحق ، ولم يعش بهذه الدولة الجديدة النامية فى عزلة عن العالم المحيط به ، بل دعا المسلمين الى الانطلاق فى أرض الله الواسعة لنشر دعوتهم العالمية على أساس من أخوة البشر والتعايش السلمى بين الشعوب .

ولئن كنا قد عرضنا فى هذا الكتاب لبعض الجوانب من **حياة محمد وكفاحه ورأينا فى هذا الرسول نموذجا خالدا للخلق الاسلامى المثالى ، وحاكما ديموقراطيا نبيلا عف عن مظاهر الجاه والسلطان والتميز وحيا حياة التواضع والبساطة ، ولم يخلف وراءه مالا أو ارثا ، وأول رائد للتعايش السلمى ونصير للسلام .** فان هنالك جوانب أخرى جديرة بالدراسة ، وهذا ما أرجو ان أوفق اليه فى كتاب آخر أتحدث فيه عن تلك الجوانب من حياة محمد كداعية ملهم ، ومنظم ثورى فذ ، ومحارب باسل ، وسياسى صريح أمين . وقد استطاع بهدى من الله وبفضل هذه الهبات أن ينشر ويوطد أعظم دعوات الاصلاح فى أقسى الظروف ورغم أخطر العراقيل والصعاب ، وأن يغير مجرى التاريخ اكثر مما غيره أى بشر آخر .

عبد الغنى سعيد

تقديم الطبعة الانجليزية

ظلت تشغل ذهني لعدة سنوات فكرة نشر دراسة حديثة للاسلام كعقيدة تقدمية عالمية حركية . ولقد نبتت هذه الفكرة لأول مرة خلال أسفارى الى الخارج مصحوبا بزوجتى ، التى تهتم اهتماما مماثلا بالاسلام كدعوة عالمية لخير الانسانية جمعاء . وكانت مناقشاتنا مع غير المسلمين عن الدين عموما ، وعن الاسلام بوجه خاص مفيدة ومحفزة ملهمة . ولم نلبث ، وقد لمسنا الحاجة الى احياء وتدعيم القيم الروحية فى عصرنا المادى الذى تفشى فيه عدم الايمان ، أو على الأقل الفتور السائد نحو الدين ، أن شعرنا بواجبنا نحو اصدار كتاب عن الاسلام كدعوة تقدمية حركية وقادرة على مواجهة الظروف الدائبة التغير ، وعلى حل مشاكل الانسان المعاصر .

ولئن كنت قد أقدمت وحدى على اعداد هذا الكتاب خلال فترة غير اختيارية للراحة من مشاغل العمل والبيت ، فانى لحريص على أن انوه بأن الكثير من الآراء الواردة فى الكتاب انما هى تخص زوجتى التى يسرنى أن أسجل تشجيعها ومعاونتها . كما أود ان أوضح منذ البداية اننى قد حرصت على تجنب العبارات العاطفية والتزام الحقائق العلمية ، دون أقل محاولة للدعاية

للاسلام كأحسن الأديان جميعا . ولا أحسب الاسلام فى حاجة لأن ينعت بالأحسن ، وهو الذى يؤلف الحلقة الأخيرة فى سلسلة الرسالات السماوية . ولهذا فقد خصصت **الفصل الأول** من الكتاب لتحليل عملية تطور الدين بغية ابراز أهمية كون الاسلام آخر حلقة فى هذا التطور ، الذى اقترن دائما بتطور فكر ومدنية الانسان . وكما أوضحت فى هذا الفصل ، كان الدين عاملا ميسرا لتقدم الانسان منذ البداية . ولقد جاء لتبديد ظلمات السحر والشعوذة والخرافة ، بل ليحرر منها ملايين الجهال! وكان ابراهيم أول من أرسى قواعد الدين الحق الخالص بمنهجه التجريدى البسيط والمباشر للوصول الى حقيقة الله ، وبوضعه حدا نهائيا للوثنية وسائر أنواع الرمزية المادية ووساطة الكهنة . ولهذا رأينا القرآن ينعته «مسلما» وهو اصطلاح استخدم فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم لوصف المؤمنين الصادقين بما فيهم الذين عاشوا قبل ظهور الاسلام . فلقد نعت بالمسلمين نوحا وأنصاره وسحرة فرعون الذين آمنوا بدعوة موسى ، وتلاميذ المسيح ، كما أوضحنا فى **الفصل الخامس** الخاص «بمعنى الاسلام» ، ألا وهو الاسلام الحر التام لمشيئة الله وهدايته . وغنى عن البيان أن الاسلام قد اعترف باليهودية والمسيحية ،واحترم سائر الرسالات والفلسفات الخلقية الأخرى . فلقد سمى اليهود والمسيحيين « **أهل الكتاب** » واعتبرهم بذلك أخوة فى الدين ، ومن ثم دعا الى تفاهم مشترك لتسوية خلافاتهم الخاصة ، والاتحاد تحت لواء العقيدة الجديدة باعتبارها الأخيرة والوحيدة . وما كان محمد الذى وصف بخاتم الأنبياء ليأتى لهدم الرسالات والأديان السابقة ، وانما جاء لاتمام **واكمال عمل ابراهيم وموسى وعيسى**. واستهدفت دعوته تنقية الدين من الطقوس ومما تسرب اليه من شوائب الخرافة ، والقيام بحركة بناءة لتبسيطه وتوحيده وتدعيمه . واذا كان الله واحدا أحدا ، فلابد أن يكون للانسان دين واحد

يعترف بجميع الأديان السـابقة ويتوجهـا ((**ان الدين عند الله الاسلام**)) .

لقد كان ظهور الاسلام آخر حلقة فى تطور الأديان ، وأراد الله لمبادئه الأساسية أن تعيش الى الأبد وهى من العموم والبساطة والمرونة بحيث تستطيع مواجهة أية تغيرات فى ظروف البشر ونظمهم وعلاقاتهم . ولم يقف الاسلام عند حد ارساء القواعد الأساسية لمجتمع انسانى سليم ، عن طريق تقوية ومتابعة العنصر الخلقى للدين باضافة لمسات دقيقة من حسن التصرف وآداب السلوك الى المقومات الأساسية للخلق ، بل **أقام أيضا دعائم الدولة الاسلامية شاملة جميع الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لحياة البشر** .

وما كنا لنقف فى هذا الكتاب مواقف الدفاع عن الاسلام ضد الاتهامات الزائفة والدعايات المضللة ، فمثل هذا الموقف لايمكن الا أن يكون سلبيا ! **والأجدى لجب مثل هذه الاتهامات القائمة على التحيز والتعصب ، هو اعطاء صورة ايجابية موضوعية للاسلام بلغة عصرية يسهل فهمها على غير المسلمين فى هذا العصر.** ويجدر بى أن أوضح ان عرض الاسلام بمثل هذه اللغة العصرية لايعنى بالضرورة تجديد مبادئه العامة التى أثبتت قابليتها للتطبيق فى كل مكان وفى كل عصر .

ومؤلف هذا الكتاب ليس من دعاة العصرية أو التبرير . وهو يتفق مع ((**و. ك. سميث**)) فيما ذهب اليه من أن أكثر الكتابة التبريرية عن الاسلام قد خنقت تقدير الغرب لمبادئه وأهدافه ، وغالبا ما كانت تأتى بعكس المقصود . وهو يرجو مخلصا أن يكون قد وفق بهذا الاسهام المتواضع فى دراسة الاسلام ، كما هو ، الى اعطاء القارىء فكرة ايجابية عن مدى عمق واتساع

هذا الدين الذى يتوج جميع الأديان السابقة ويختم رسالات الأنبياء . فلم تكن تلك الرسالات سوى مراحل متتابعة فى الطريق الى الكمال . وما أن حقق **الرسول محمد** مرحلة الكمال الأخيرة ، حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » .

واذا كان الاسلام يقوم اساسا على وحدة الدين ، فهو لا يمكن الا أن يكون واحدا ! وما يسمى بالمذاهب أو المدارس الفكرية للاسلام مثل السنية والشيعة والشافعية والحنبلية الخ ... ، لا يؤلف عقائد منفصلة أو قائمة بذاتها كما هو الحال بالنسبة للكاثوليكية والبروتستنتية والأورثوذكسية. ذلك أن لهذه المذاهب كنائسها المنفصلة ، والخلافات والمنازعات بينها لاتزال قائمة ، بينما لايوجد للمذاهب الاسلامية مساجد منفصلة . وهى تخص التاريخ أكثر مما تخص الجوهر . ولم تعد لخلافاتها أهمية تذكر لأنها تتعلق بالشكليات والتفاصيل الجزئية للتطبيق ، ولا تمس المبادىء الأساسية أو العامة . وفى اعتقادى ، أنها لمضيعة للوقت ان نشغل القارىء بأمثال هذه الشكليات والجزئيات ، ومن ثم سأغفلها كلية . وبالمثل لم أنهج ذلك المنهج المدخلى التقليدى الذى يعرض لتاريخ شبه الجزيرة العربية وجغرافيتها الاجتماعية باعتبارها البيئة الطبيعية لظهور الاسلام . ذلك لأن الاسلام ليس بالشىء الذى يخص العرب وحدهم ، بل هو دعوة عالمية تخص الانسانية جمعاء . كما لا يدخل تاريخ الدولة الاسلامية فى مجال بحث هذا الكتاب ، ولهذا لم أكلف نفسى عناء تلخيص مثل هذا

التاريخ الطويل الحافل بالأحداث . فضلا عن أنه لن يفيد القارىء الاطلاع على ملخص مركز دون تحليل أو تفسير .. حتى تاريخ حيـاة الرسول لم أحرص أيضا على ابرازه ، ولئن لم يجد القارىء فصلا خاصا بذلك ، فهذا لايعنى عدم التقدير ، كما لايعنى مجرد الاهمال ، وانما هو من باب التمشى مع مبـدأ لاذاتية الأنبياء ، واتباعا للتقليد القرآنى الذى يقضى باغفال تواريخ الحياة الخاصة للأنبياء ، والتركيز على مبادئهم ، وما خلفوه من قدوات خلقيـة للأجيال التالية .

عبد المغنى سعيد

الفصل الأول

نشأة وتطور الأديان

« والذين يؤمنون بما أنزل
اليك وما أنزل من قبلك »

قرآن كريم

كيف أتيح للانسان أن يعرف ماهية الدين ومغزاه ؟ وكيف أدرك حاجته الى الاعتقـــاد فى الدين ؟ وهل كان الدين أمرا لا غنى عنه للانسان وهو فى مراحل تقدمه الأولى ؟ وهل عاق أم ساعد على اطراد تقدم مدنية الانسان ؟ وهل لا يزال الدين أمرا لا غنى عنه للانسانية حتى فى عصرنا الحاضر بعد أن حقق الانسان تلك الكشوف والانتصارات العلمية العظيمة ؟ واذا صح هذا ، فلماذا نرى الآن أناسا كثيرين فى جهات متفرقة من العالم ينظرون الى الدين كشىء عتيق ؟ لماذا يبدو بعض الناس غير مكترثين بالـدين بينما لم يعد آخرون يؤمنون به قط ؟ هذه الأسئلة وأمثالها كثيرا ما تطرأ على أذهاننا فى هذا العصر المادى الذى زادت انتصاراته العلمية العظيمة من غرور الانسان وجعلته يظن أنه أكبر من أن يعتقد فى وجود الله خالق السموات والأرض !

ان ظاهرة عدم المبالاة بالدين ، أو بعبارة أخرى الافتقار الى الايمان قد أخذت ، فيما يبدو ، تنتشر انتشارا واسعا فى كل من الشرق والغرب ، وفى الدول الرأسمالية والاشتراكية على السواء ولعله من السابق لأوانه أن نناقش فى هذا الفصل أسباب هـــذه الظاهرة ، ولكنها تنطوى على سؤال بالغ الأهمية وهو : هل يوجد ثمة تعارض بين العلم والدين ، أم انهما يتلاءمان معا ؟ هذا السؤال سنعالجه بالتفصيل فى موضع آخر . وانه لايكفى فى الوقت الحاضر أن نركز الاهتمام على جانب واحد من السؤال ، الا وهو تتبع جذور أو أصول فكرة الدين ، لكى نرى ما اذا كانت قد انبثقت من العلم أم انبثقت من الخرافة ؟ ان هذه الجذور أو الأصـــول انما يبحث عنها فى دائرة أوسع ، تلك هى دائرة صراع الانســـان الأبدى ضد الطبيعة . فالانسان منذ بدء الخليقة ، وهو يخوض طوال القرون أعنف وأدأب صراع بينه وبين الطبيعة . وكلما نجح الانسان فى اكتشاف ما خفى عليه من أسرار الطبيعة ، وكلما روض من قواها

الجبارة الخارقة ، كلما نمت مدنيته نموا متصلا متواصلا . وقد يرى الانسان فيما يحققه من خطوات النجاح والتقدم انتصارا على الطبيعة ، ولكنه رغم ما حققه وما سوف يحققه من انتصارات متوالية ، سيظل هو الطرف الضعيف فى هذا الصراع ، وستظل معركته المستمرة ضد الطبيعة غير نهائية أو غير فاصلة ! وايا كانت الانتصارات التى يزعم الانسان انه حققها على الطبيعة ، وعلى الرغم من أن الله قد خصه بنعمة العقل أو المسئولية ، تلك النعمة التى تجعل منه سيد الكائنات جميعا ، فانه لا يزال أبعد ما يكون عن التحكم فى قدره أو مصيره ! انه لا يستطيع أن يعرف ماذا يخبىء له الغد ! انه لا يستطيع أن يعرف متى يموت وبأى أرض يموت ، انه لا يستطيع أن يغير مجرى الرياح . ولا يستطيع فى موسم الجفاف أن يجعل المطر يأتى مبكرا ، أو أن يعرف حتى متى يسقط المطر !! ان مثل هذه المسائل لا تدخل فى حيز قدرة الانسان بل هى تخص الله وحده ! فهو الأول والآخر ، والخالق الأوحـــد والقوة العليا التى تخلق وتحكم وتهيمن على جميع قوى الطبيعة ، وانه لفى أوقات الضراء عادة ، عندما يجد الناس أنفسهم عاجزين عن مواجهة الكوارث الطبيعية التى تدهمهم مثل الفيضــــانات والعواصف ، والزلازل والبراكين والسيول الجارفة ، وأوقات القحط والجفاف ، والأوبئة والمجاعات .. ، لا يسع الانسان الا أن يشعر بالضعف والتواضع ! وهذا هو الوقت الذى يشعر فيه الانسان بقربه الى الله ويسعى لنجدته ، وهو اذ يشعر بالخطر الماثل ويخشى أن تسحقه الطبيعة الجبــــــارة يتطلع الى وجود قوة أعلى تسيطر عليها وتستطيع أن تكبح جماحها ! وسرعان ما يتحول تطلعه وأمله فى وجود تلك القوة وفى اقدامها على العمل الى الايمان بوجودها وقدرتها واستجابتها للدعاء !

هكذا اهتدى الانسان أول ما اهتدى الى وجود الله . ولنأخذ

ذلك المثل المحدد لرجل يواجه العاصفة فى البحر ، وهو مثل ذكر أكثر من مرة فى القرآن ((**واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور** »(٢) ولقد أبرز القرآن فى موضع آخر تكران الانسان وغدره بعد أن يكتب الله له النجاة « **واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه ، فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا** »(٣) مثل هذا الموقف السلبى الغادر من جانب الانسان لا يمكن أن يكون فى صالحه بأية حال ! انه الخاسر فى المدى الطويل وما الله بخاسر قط . ولئن كان الناس يذكرون الله اذا ما اجتاحت الانواء سفنهم فى البحر فما أكثر ما ينسونه أو يتناسونه بعد النجاة ! «**وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم** »(٤) .

ترى ماذا يكسب الانسان بموقفه السلبى وغدره ؟ أيظن انه وقد نجا مرة لن يتعرض للخطر ان عاجلا أو آجلا مرة أخرى وهل هو يستطيع خداع الله ؟ واذا استطاع على سبيل الفرض أن يخدعه مرة ، فهل من المستطاع أن يخدعه أكثر من مرة ؟! وهل فى امكانه عندئذ ان يجد له منقذا بديلا ؟ ان القرآن يضع الجواب الصحيح على مثل هذه الأسئلة « **ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون**)) (٥) و ((**ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى**

---

(٢) سورة لقمان ، الآية ٣٢

(٣) سورة الاسراء ، الآية ٦٧

(٤) سورة يونس ، الآيتان ٢٣،٢٤

(٥) سورة القصص ، الآية ٨٨

الله فليتوكل المؤمنون» (٦) وانه لبهذا التوكل على الله وحده يستطيع الانسان أن يحرر نفسه من الخوف ، وان يشعر بالسعادة والاطمئنان .

وثمة مثل محدد آخر نسوقه من القرآن ، الا وهو الخاص بالمطر . من الذى يسقط الأمطار ؟ هل فى استطاعة الانسان أن يسقط الأمطار أينما يريد ووقتما يشاء ؟ هل فى استطاعته ان يضمن سقوطها بالكميات وعلى الفترات التى يحتاج نسبيا اليها ان الأمطار الغزيرة التى تطول فترة سقوطها قد تحدث سيولا جارفة تجتاح النباتات والقرى ! ان موسم جفاف يطول بعض الشيء قد يحدث المجاعة ! **ان اليد العليا هى يد الطبيعة وليست يد الانسان ، ومن يده أعلى من يد الطبيعة غير الله خالقها والقادر على حماية الانسان من كوارثها ، انه «خير وابقى»** (٧) من اى منقذ أو حام آخر . «**وهو خير الناصرين**»(٨) لقد كان الناس فى المجتمعات البدائية وما زالوا حتى الآن فى بعض المجتمعات المتخلفة يلجأون الى السحر ينشدون عونه ! ولئن تنبأ لهم السحرة بسقوط المطر واحيوا بذلك الأمل فى نفوس الفلاحين ، الا أنهم ليسوا بصانعى أمطار ، كما قد يخفف الفلاحون أو يزيدون من قلقهم بتلمس البشائر الطيبة أو السيئة ولكن ما عليهم الا الانتظار حتى تتحرك هذه القوة الخلاقة وتعمل ! لقد كان المقصود بالبشائر أن تطمئن الناس أن هذه القوة سوف تعمل . كما كان المقصود بالسحر أن يدعوها الى أو يستحثها على العمل ! وهكذا لم يبتدع الانسان السحر والبشائر للاستعاضة بهما عن الله ولكنه استحدثها فى بداية الأمر زلفى للتقرب الى الله وسؤاله العون ! ولئن كان الأمر

---

(٦) سورة آل عمران ، الآية ١٦٠

(٧) سورة طه ، الآية ٧٣

(٨) سورة آل عمران ، الآية ١٥٠

كذلك ، فهل يمكننا القول ان الله « شيء خرافي » أو ان الدين قد انبثق عن السحر والشعوذة والخرافة ؟! ان مثل هذا الاسلوب الساذج أو الهمجي للتقارب الى الله ، كما طبقه الرجل البدائي لا يتصل عن قرب أو عن بعد بجذور واصول الأديان ، حقيقة ان الانسان البدائي قد شعر بوجود الله كقوة خلاقة خارقة . ومع أنه قد شعر فعلا بهذا الوجود ، الا أنه كان من المتعذر عليه في تلك المرحلة المبكرة لتطور الفكر الانساني ، ان يكون ويصيغ نظرية خالصة للدين . ان الطريقة التي كان يخمن بها القوم البدائيون عن الدين ، دون تفكير علمي منظم ، كانت تعتمد على العاطفة والغريزة والاستلهام أكثر مما تعتمد على العقل والمنطق والحكمة . فكان لابد وان يضعوا لأنفسهم رمزا ماديا من شأنه أن يجعل فكرة الله أقرب الى ادراكهم وتصورهم . لقد كانوا يجسمون فكرة وجود الله في مثل هذا الرمز المادي ، وهو ما اطلق عليه فيما بعد الوثن أو الصنم . وكان من الطبيعي أن نرى مثل هذه الحيلة لتجسيم الله تقود القوم البدائيين سريعا الى الاعتقاد ان هذا الرمز أوالصنم هو الله نفسه ، نتيجة لضعف الادراك وفقر الخيال ! وما أن صنع النـــاس رموزا أو أصناما ، حتى وجدوا أنفسهم يتبعون آلهـــة منوعة ،لم يلبث ان أدى تنوعها وتعددها الى مشكلة خطيرة ، الا وهي مشكلة ظهور أو تكتل عصابات مختلفة من محترفي أشـــباه الديانات يضللون الفئات المختلفة من عبدة الأصنام . وقد لا يكون من المهم ان نتساءل ما اذا كان هؤلاء المحترفون أوفر أو أقل ربحـــا من السحرة ، لأن السحر لم يلبث أن اختلط بعبادة الأصنام وكونا ظاهرة واحدة . وهذا هو ما حدا ببعض الكتاب الى ارجاع أصـــول الوثنية الى السحر . ولئن صح هذا بالنسبة للوثنية ، فانه لا يمكن ان يصح بالنسبة للدين وذلك لسبب بسيط وواضح ، وهو أن الدين انما قصد به منذ البداية أن يقاوم السحر والشـــعوذة ، وأن يحرر الانسان منهما بعبارة ادق . وان لفي قصة ابراهيم الجد

خير ما يوضح لنا هذه الحقيقة التى لا تقبل النزاع أو الجـــدل . **لقد كان اسلوب ابراهيم فى الاهتداء الى وجود الله اسلوبا مباشرا وبسيطا** . وكانت طريقة تفكيره تجريدية أصيلة ، فهو لم يشـــعر بحاجة الى تجسيم الفكرة فى رمز مادى ، أو فى وثن بعبارة اخرى ، بل أبدى عيانا جهارا احتقاره للاوثان وعبدتها متسائلا ، اذا كانت هذه الأوثان او الأصنام من صنع الانســـان ، فكيف يستسيغ الناس لأنفسهم أن يعبدوا أشياء صنعوها بأيديهم ؟ لقد كان تحدى ابراهيم لقومه عظيما جد خطير ! اذ عمد الى تحطيم جميع الأصنام الا واحدا هو أكبرها جميعا ! وما ان راى القوم ما حدث لأصنامهم حتى جن جنونهم ودعوا الى اجتماع هام ، وقاموا بأدق التحريات .. من الذى حطم آلهتنا ؟ من الذى اجترأ على اقتراف هذا الجرم ؟! فليسقط المجرم ! الموت للمجرم ! والقى فى آذان ذلك الطغام الهائج المائج أن شابا يقال له ابراهيم هو الذى اقترف الجريمة ، لقد سمعه الكثيرون يدعو الى أفكاره الخيالية ضد أصنامهم ، فساقوه الى الجماهير ليستجوب ويحـــاكم وهنا كان التحدى !

ــ من الذى حطم أصنامنا ؟

ــ لديكم صنما لم يتحطم .. لقد شهد الحادث فاسألوه ! .

ــ ماذا تقول ؟! انه لا يسمعنا ولا يستطيع أن يجيب .

ــ كيف هذا ؟ أو ليس بأكبر الاصنام جميعا ؟! لقد تحطمت الأصنام فى حضوره ولم يستطع الدفاع عنها ! أو من يدرى ؟ لعله هو الذى حطمها ! .

ــ هراء لا يمكن أن يكون الذى فعل هذا هو الصنم الأكبر !

ــ الأمر بسيط ! هو السمك الكبير يأكل السمك الصغير .

ــ مستحيل انت تلعب بالألفاظ .. انك لكاذب !

ـ ما أنا بكاذب ! دعوني وشاني وآتوا بصنمكم الأكبر ليشهد !

كان هذا جواب ابراهيم البسيط جد المقنع لقومه الغاضبين . وما كان أحق هذا الجواب أن يهدىء ثائرة نفوسهم ، ولكنهم على نقيض ذلك ازدادوا غضبا وعنفا «**واصدروا حكمهم باعدام ابراهيم بالحرق حيا** : ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذ مؤسس الدين الخالص الذى اسلم اليه امره ، أى وضع فى الله كل ايمانه وثقته . ولقد استخدمت كلمة « الاسلام » فى القرآن الكريم لتعريف الادراك الدينى العام لابراهيم ! فهو لم يكن كما جاء فى القرآن « **يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين** »(٩) الأمر الذى لا يحتمل اساءة الفهم فلقد عاش ابراهيم قبل ظهور اليهودية والمسيحية والاسلام بزمن طويل ، ولم يكن ليسمى يهوديا أو مسيحيا أو مسلما ! وتلك حقيقة لا تتنافى مع فضله فى ارساء قواعد الدين الخالص ، تلك القواعد التى لها مكانتها البارزة بين الاصول والجذور الفكرية للرسالات السماوية الثلاث المقدسة .

ويمكننا تلخيص هذه القواعد فيما يلى :

أولا : التوحيد أى وحدة الله .

ثانيا : الغاء عبادة الأصنام ووضع حد نهائى لجميع أنواع الرموز المادية كوسيلة للتقارب الى الله والاتصال به .

ثالثا : الاهتداء الى حقيقة وجود الله عن طريق التأمل والبصيرة وادراك آيات وشواهد الخلق .

رابعا : تلمس هداية الله عن طريق الدعاء والصلاة .

خامسا : ادخال نظام الحج كوسيلة للتشاور والتفاهم والتعاون المتبادل بين المؤمنين .

---

(٩) سورة آل عمران ، الآية ٦٧

تلك هى الخطوط الرئيسية لعقيدة ابراهيم التى كانت بحق بسيطة واضحة . ويرجع هذا الوضوح وترجع تلك البساطة الى اسلوب ابراهيم فى التفكير والبحث . فبعد أن اسقط الأوثان من ذهنه تماما ، بدأ يبحث عن شيء آخر يكون أكثر قبولا . لقد تطلع الى السماء والكواكب « **فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هـذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهـدنى ربى لأكونن من القـوم الضـالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلمـا أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطـر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين** »(١٠)

كان هذا هو التقليد الذى استنه ابراهيم ، تقليد اسلام الوجه لله او « الاسلام » . « **ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا** »(١١)

لقد تناولنا حتى الآن فكرة الدين من جانبها اللاهوتى دون اية محاولة للزج بأنفسنا فى متاهات الخلافات الفلسفية حول وجود الله ، ولئن جاز للكفار أن يتحدوا المؤمنين عما اذا كان فى استطاعتهم بحشد كل منطقهم وفلسفاتهم أن يثبتوا أن الله موجـود ، فان مثل هذا الأسلوب للمناقشة يمكن أن يستخدم أيضـا فيما يختص باثبات عدم وجود الله وما كان للكفار بكل ما أوتوا من منطق وفلسفات أن يثبتوا أن الكون قد وجد تلقائيا ، وانه ظل منـذ وجوده يسير من تلقاء نفسه الآلاف بل ملايين السنين ! وفى اعتقادى انه من غير الملائم أن نضيع وقتنا فى مثل هذه المجادلات الفلسفية البحتة ! ولعله من الافيد والأوقع أن نناقش ما اذا كان الـدين مفيدا للانسـان أو ضارا به ، بدلا من الجدل العقيم لاثبات ان الله

---

(١٠) سورة الأنعام ، الآيات ٧٥ـ٨٠

(١١) سورة النساء ، الآية ١٢٥

موجود أو غير موجود ! فاذا ما اتضح لنا انه من صالح الانسانيـة الاعتقاد في وجود الله والتمسك بأهداب الدين ، لما جاز لنا بعـد ذلك أن نطالب انفسنا بما هو اكثر من التسليم بالحقيقة أو الاسلام لله . وانه لعمل صبياني ولاشك أن يتساءل المرء أو يسأل نفسه أو زملاءه اسئلة كتلك التي يوجهها الأطفال عادة الى الآباء ! ماهو الله ؟ وبأى شكل يبدو ؟ وأين يقيم ؟ ترى أله والد ؟ ترى أله ابن أو ابناء ؟ نحن ننظر الى هذه الأسئلة ومثيلاتها كأسئلة سـخيفة أو على الأقل ساذجة ! ذلك انه لا يوجد اى شيء على الأرض او السماء يمكن ان يكون شبيها لله ، لأن الله قد ولا يمكن مقارنته بأى شيء آخر ! وما كانت لتكون لله اقامة ثابته أو محددة ، لأنهببساطة موجود في كل مكان ، ولأنه أقرب الينا من حبل الوريد(١٢) وليس الله قريبا منا هذا القرب فحسب بل هو في انفسنا الى حد كبير ! والذى يمثله في نفوسنا هو الضمير أو جانبنا الطيب . والمقصود بالجانب الطيب هو جميع القيم الخلقية والصفات الحميـــدة والسلوك الرقيق التي تبلورت طوال العصور . وبعبارة أخرى **كلما كان الانسان اقرب الى الله ، كلما كان الله أيضا أقرب اليه .**
واذا كان ايمان الانسان من الكمال بحيث يشعر انه في اتحاد روحى مع الله ، فانه لا يستطيع قط أن يفكر في هذه الحالة أو ينتظـــر منه أكثر من مجرد الهداية أو الالهام . وهكذا لم تكن تجربة موسى مع الله في مثل بساطة وتجريد وتجـــربة ابراهيم . فقد طلب أن يرى الله مدفوعا برغبته في أن يعرف عنه أكثر ! وكان أن عرضه هذا الطلب ، بالرجوع الى القرآن ، لتجربة قاســـية عنيفة ! **« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر اليك ، قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ،**

---

(١٢) ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد سورة ق ، الآية ١٦

فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وانا أول المؤمنين » (١٣) ولو أن موسى قد نهج منهج ابراهيم فى التفكير البسيط المجرد ، لما تعرض لمثل هــــذه التجربة المريرة ! ولم يلبث موسى أن خرج من هذا اللقاء العنيف أو تلك التجربة المريرة برسالة أكثر تعقيدا ومغامرة ، حيث أوحى اليه الله ان يذهب مع أخيه هارون الى فرعون « **اذهبا الى فرعون انه طغى »** (١٤) وهكذا كان على موسى ، ليس ان يحارب الوثنية فحسب . بل أن يكافح طغيان فرعون وجبروته أيضا ! وقد بدت له المهمة الأولى ابسط بكثير ، أما المهمة الثانية فكانت جد مثيرة ولم يتفق المؤرخون فيما بينهم على العصر الذى جرت فيه أحداث الصراع بين موسى وفرعون . ولا يعنينا هنا أن نتصدى لتحديد هذا العصر . ولكننا نرى من المهم أن نوضح أن **قدماء المصريين** لم يكونوا بالمتخلفين فى الفلسفة الدينية . فقد آمنوا بالحياة الآخــرة وكادوا يصلون فى عهد اخناتون الى دين مثالى موحد ، لولا النكسة التى عصفت بثورة اخناتون الدينية . تلك الثورة التى أقام بهـا ذلك **الفرعون العظيم** ، مدخلا لمفهوم التوحيـــد لأول مرة فى الديانة المصرية القديمة . فقد قضى على تعدد الآلهة وشتت القساوسة المحترفين ومنع طقوسهم فى المعابد ، مما رفعه فى نظر بعض المؤرخين الى مرتبة انبياء الانسانية الأوائل . وغالبا ما يكون الاضطهاد الفظيع لليهود ونزوحهم التاريخى من مصر قد تم فى عهد واحد من خلفائه لا يمكن ذكره على وجه التحديـــــد . ولا نحسبنا فى حاجة الى الحديث عن كفاح موسى ضد فرعون وتحديه الاعجاز لسحرته وكهانه ، وهروبه المثير عبــر ســيناء الى أرض الميعاد ، فهذه تفاصيل معروفة ولا محل لتكرارها هنا . الا أن

---

(١٣) سورة الأعراف ، الآية ١٤٣

(١٤) سورة طه ، الآية ٤٣

ثمة حقيقة واحدة جديرة بالذكر ، وهى أهمية ومغزى كفاح موسى كمثل واضح لوظيفة التحرر الاجتماعي للدين ، حيث توضح لنا ان الحركات الدينية لم تكن بالحركات الروحية أو المعنوية البحتة ولكن كان بين اغراضها ايضا تحرير الانسان من الظلم والفاقة وجميع مظاهر الغبن الاجتماعي . ويبدو أن الكثيرين من اتباع موسى لم يكونوا ليدركوا هذه المعاني السامية . وقد كان من العسير عليهم أن يتركوا وادى النيل بخيراته ونعمه الى اراضى سيناء الصحراوية الجرداء ! وسرعان ما فقد بعضهم الأمل فى ارض الميعاد التي وعدهم موسى بها ! بل كان بين هؤلاء من يفضلون البقاء عبيدا في مصر على القيام بمغامرة الهروب هذه التى فرضت عليهم الى مقصد مشكوك فيه .. وهكذا لم تلبث مقاومتهم ان ضعفت وعندما تركهم موسى لينفرد ويتفرغ للتأمل والعبادة لمدة الأربعين يوما عادوا الى وثنيتهم الأولى ليعبدوا عجلا ذهبيا من صنع ايديهم ، الأمر الذى حز فى نفس موسى . وقد آلمه كثيرا أن يحدث هذا الذى حدث في غيبته تحت سمع وبصر أخيه هارون . ولقد عانى كثيرا فى سبيل اعادتهم للحق والايمان . واذا كان قوم موسى قد تعرضوا لمثل هذه النكسة الفاضحة فى حياته ، فماذا كان ينتظر منهم أن يفعلوا بعد وفاته بسنوات أو أجيال ؟ ! انه لمما لاشك فيه بالرجوع الى الحقائق التاريخية والانجيلية ، انهم قد عادوا الى تطبيق الكثير من الطقوس والشكليات الوثنية لصالح المحترفين من القساوسة والحكماء . بل وخصوا أنفسهم وحدهم دون شعوب الأرض جميعا بالديانة اليهودية ، فجعلوها بذلك ديانة مغلقة أى قاصرة على شعب الله المختار ! فهم لم يخلطوا الدين برواسب الوثنية فحسب ، بل غلفوه بسياج منيع من العنصرية أيضا ، وبهذا اصبحت اليهودية لبني اسرائيل جنسا ودينا ووطنا ! وأصبح القساوسة اليهود بذلك طبقة مميزة في شعب مميز ! ومن أجل هذا

برزت الحاجة الى **الاصـــلاح الديني** ، والى تخليص الدين من هذا السـياج . ولم يلبث أن تمخض الشعور بهـذه الحاجة عن **ظهور المسيحية** ،فقد كانت رسالة المسيح أن ينقى ويعمم الدين ، الأمـر الذى يبدو واضحا في كلمات **السيد المسيح** «على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ماقالوا لكم ان تحفظوه فاحفظوه وافعلوه. ولـكن حسب أعمالهم لاتعملوا ، لأنهم يقولون ولا يفعـــلون .. فانهم يحزمون أحمالا ثقلية عسرة الحمل ويضـــعونها على أكتاف النـــاس ، وهم لا يريدون أن يحركوها بأصبعهم . وكل أعمالهم يعملونها لكى ينظرهم الناس فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول فى الولائم ، والمجـــالس الأولى فى المجامع ، والتحيات في الأسواق وأن يدعوهم الناس سيدى سيدى . وأما أنتم فلا تدعوا سيدى لأن سيدكم واحد . وحتى المسيح وأنتم جميعا أخوة . ولا تدعو أحدا أباكم على الأرض ، لأن سيدكم واحد، حتى المسيح ! ولكن الأعظم فيما بينكم هو خادمكم » (١٥) هـــكذا ويمثل هذا العنف ولكن مع عميق الاخلاص ، كانت حملة المسيح على هؤلاء الذين جلسوا على مقعد موسى ! ذلك أن **الأديان جميعا ، تبدأ نقية أول ما تبدأ ولكن سرعان ما تتسرب اليها شوائب التزمت والطقوس المظهرية والشكليات شبه الوثنية ، بل والنفاق !** ولهذا يبعث الله الأنبياء والرسل الواحد بعد الآخر ليذكر وليجدد وينقى ويدعم دينهم .. فرسالة المسيح لم تكن بالرجوع الى كلماته ، « لهدم القانون أو الأنبياء ولكن لاتمام عملهم واكماله تلك وصـايا موسى العشر ، كانت أسـاسا عقوبية ، رادعة ، ثم جاء المسيح ليكملهـا ويطورها ويجعلها أكثر واقعية وتسامحا . وما كان المسيح ليكرس وقته لعلاج الأجسام فحسب ولكن كرسه أيضا لعلاج النفوس . بل كان علاج النفس هو الهدف الأساسى لتعاليمه ! انه لم يكن ليكفى

(١٥) العهد الجديد : انجيل متى ــ الفصل ٢٣ ، فقرات ٢ــ١١

فى نظره أن نقول للانسان «لا تقتل» ولكن يجب أن نحرص على تجنب البغضاء والحقد والغضب باعتبارها أخطر أسباب العـــدوان والقتل ! قال المسيح « **لقد سمعتم أن قد قيل فى الأزمان القديمة لاتقتل وكل من يقترف القتل سوف يكون عرضة للجزاء . ولكن أقول ان كل من يغضب على أخيه بدون سبب سوف يكون عرضة للجزاء**(١٦) وهذا يعنى أن الانسان يجب أن يحرر نفسه من الكراهية والحقد الى الحد الذى يجعله يحب عدوه مثلما يحب صديقه . « لقد سمعتم أن قد قيل : أحب جارك واكره عدوك . ولكنى أقول لكم : **أحبوا أعدائكم، وباركوا من يلعنوكم ،وافعلوا الخير لمن يكرهونكم ، وصلوا لهؤلاء الذين يمتهنونكم ويضطهدونكم** » .

لقد أبرز المسيح فى دعواه الوقائية أيضا العـــلاقة بين الرغبة والزنا ، قائلا لقومه لقد سمعتم أن قد قيل فى الأزمان القديمة : لا تقترف الزنا . ولكنى أقول لكم **من ينظر الى امرأة نظرة يشتهيها فقد اقترف الزنا معها فى قلبه !** » . وواضح أن المسيح كان يدعوا بهذه الأمثلة الى ما هو مثالى ساعيا بذلك الى الكمال « **اذن فابلغوا الكمال ، وانشدوا حتى كمال أبيكم الذى فى السموات !**

ان دروس الحب والاحتمال والتسامح التى علمها المسيح وعاشها أيضا ، كانت تحديا عظيما للعصر الذى عاش فيه ، ذلك العصر الذى سادته الكراهية والأحقاد وروح العدوان . وشأن أغلب أن لم يكن جميع الأنبياء عانى المسيح سخرية قومه وحقدهم . وكذلك سلبيتهم وعدم اكتراثهم . «**فلقد شهد المسيح بنفسه أن لا كرامة لنبى بين قومه**(١٧) **ذلك أن بنى اسرائيل ، قوم المسيح ، كانوا جامدين متزمتين ونزاعيين دائما للعـــدوان . وكانت قلوبهم غليظة قاسية** « **فهى**

---

(١٦) العهد الجديد ، انجيل متى ، الفصل الخامس ــ الفقرتان ١١ ، ١٢

(١٧) العهد الجديد ، انجيل جوضا الفصل الرابع ، والفقرة ٤٤.

كالحجارة أو أشد قسوة . وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار »
(١٨) ولعل أبرز مثل لجمودهم وتزمتهم هو « **واقعة السبت** » التى كانت أحد الاتهامات التى وجهت الى السيد المسيح وتلاميذه . لم يكن جرما أن يعالج المسيح رجلا مريضا فى يوم السبت ! وما كانت لتعد مخالفة خطيرة أن يقدم تلاميذه على جنى القمح وهم جياع فى ذلك اليوم الذى حرم فيه العمل بتاتا على بنى اسرائيل ! ولقد كان جواب السيد المسيح على جلادية بسيطا قاطعا : « أود أن أسألكم شيئا واحدا : أو ليس بمشروع فى أيام السبت أن نفعل الخير ، أم نفعل الشر ؟! أن ننقذ الحياة أو أن نزهقها ؟! » (١٩) أما الاتهام الثانى الذى حوكم من أجله المسيح فقد كان أنه أراد أن يسـوى بين الله وشخصـه هو ، بزعمه أنه ابن الله سبحانه وتعالى ! وفى اعتقـاد القساوسة اليهود أن الله لا ولد له ، وأن من الجرم أن يقال أن لله ولدا ! حقيقة أن المسيحيين قد اعتقدوا وما زالوا يعتقدون أن المسيح ابن الله ، ولكن مثل هذا الادعاء لم يصدر مطلقا عن المسيح نفسه ! بل كانت اجابته عند المحاكمة « هكذا تقولون ! أما أنا فأقول لكم : سوف ترون فى الآخرة ابن الانسان جالسا على يمين القوة وقادما من سحب السماء » ! (٢٠) والواقع انه لا يوجد أى سند سواء من الناحية التاريخية أم من الناحية الانجيلية يدل على أن المسيح قد نادى بنفسـه ابنا لله بل هو على نقيض ذلك كثيرا ما كان يسمى نفسه « **ابن الانسان** » . ولئن كان قد قال فى مناسـبة أو أخرى « **أبى الذى فى السـماء** » فانه كان يقول بالمثل أيضا لأبناء قومه جميعا وهو يلقى عليهم تعاليمه « **ابوكم الذى فى السماء** » والواقع ان الله عندما يوصف بالأب ، انما لايعنى بذلك المعنى المادي للكلمة ،

---

(١٨) سورة البقرة ، الآية ٧٤
(١٩) العهد الجديد ، انجيل لوقا ، السادس فقره ٩
(٢٠) العهد الجديد ، انجيل متى ، الفصل ٢٧ فقرة ٦٤

أى أن له ابنا أو أبناء ! فنحن مجازا أبناء الله جميعا . والله مجازا أبو آدم وأبو المسيح ! انها أبوة مجازية أو معنوية وليست بالمادية ! وما كانت لتكون غير ذلك !

ليس هنالك ثمة خلاف فى كون ميلاد المسيح معجزه ! ولكن مقدمات وملابسات هذا الميلاد وطبيعة المعجزة كانت ولا تزال محل الكثير من الخلاف أو الخلط ولا أحسبه يدخل فى اختصاصنا هنا أن نناقش أسباب ومظاهر هذا الخلاف ٠ ولكننا سنقف عند تفسير الاسلام لمعجزة ميلاد المسيح ٠

ان الاسلام لا يشك قط فى كون ميلاد السيد المسيح معجزة ٠ ولكن القرآن مع اعترافه بمعجزة ميلاد المسيح **وبصفاء وطهارة امه مريم ((العذراء))** أعلن فى حسم أنه لمن الخطأ أن يدعى المسيح ابن الله ! وألقى الضوء الكاشف على حقيقة مولد المسيح فى سورة خصصت لهذا الغرض وهى سورة مريم (٢١) ولقد ختم قصة ميلاد المسيح بالحقيقة الثابتة : « **ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه**» (٢٢) وفى سورة آل عمران أكد سبحانه وتعالى ((**ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** » (٢٣) واعتبر القرآن من الكفرة هؤلاء الذين يسمون المسيح ابن الله : « **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير** (٢٤) وفى سورة التوبة أكد الله هذا التحذير بقوله سبحانه

---

(٢١) سورة مريم ، الآيات ١٦ـ٣٤
(٢٢) سورة مريم ، الآية ٣٠
(٢٣) سورة آل عمران ، الآية ٥٦
(٢٤) سورة المائدة ، الآية ١٧

بالطبع ، ولن يستطيع العلم أن يرينا الله أو يكشفه لنا أبدا ! لأن الله سبحانه وتعالى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » وأننا لنستطيع في داخل نفوسنا فقط أن نشعر بوجود الله متى تطهرنا ونقت صحيفتنا وأصبحت نفوسنا شفافه ، وعندئذ نسلم بوجود الله ، ونسلم اليه قيادتنا بالتالى ، بلا تردد وبكل ثقة واطمئنان .

ان الانسان اذا ما تعمق في داخل نفسه وامعن التأمل فيما يضمه جسمه اللين الضعيف من أجهزة مولدة للطاقة ، وأجهزة واعية مفكرة ، وأخرى حساسة عصبية منها ما يرسل (٧٠) ومنها ما يستقبل ومنها ما يحلل الخ لأدرك بلا جدال عظمة الخلق والخالق « **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** » انه ليكفى أن يدرك الانسان كيف يعمل القلب ، وكيف تعمل العين ، وكيف تعمل الاذن ، وكيف يعمل الكبد ، وكيف تعمل المعدة ، وما دور الغدد والأمعاء والشرايين والأعصاب الخ انه ليكفى أن يدرك الانسان كيف يعى العقل وكيف يفكر ويدبر ويتذكر ... انه ليكفى أن يدرك الانسان كيف تؤدى هذه الأجهزة والأنسجة الحية وظائفها فى نسق عجيب وبدون توقف سواء فى اليقظة أم فى النوم ، حتى يعلم أنه مجرد جزء جد ضئيل من هذا الكون العظيم . وأن هذا الجزء المخلوق لا يمكن الا أن يؤمن بخالق الكل ، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد أودع فى حيزه الضئيل العديد من معجزات الخلق .

« يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك » (٧١) .

---

(٧٠) سورة الذاريات ، الآية ٥١

(٧١) سورة الانفطار ، الآيتان ٧،٦

الفصل الثالث

طبيعة الأنبياء ورسالتهم

« لئلا يكون للناس على
الله حجة بعد الرسل ».
قرآن كريم

الأنبياء أو الرسل هم هؤلاء الرجال المخلصون المتفانون الذين كرسوا حياتهم للكفاح عبر القرون وفي مختلف الجماعات ضد الخرافة والسحر والجهالة والظلم والطغيان والفساد الاجتماعي . لقد كانوا رواد الايمان الذين أخذوا الطريق المستقيم ابتغاء وجه الله وأخذوا على عاتقهم فلسفة حاجة الانسان الى الدين وارساء القواعد المعنوية والخلقية للمجتمع الانساني . وما كانت حركاتهم لتكون روحية بحتة ! فقد أولوا عنايتهم أيضا لتحرير الانسان اقتصاديا واجتماعيا جنبا لجنب مع تحرره المعنوي أو الروحي . ولئن سمي هؤلاء الرجال بالرسل فذلك لأنهم كانوا رسل الله سبحانه وتعالى الى شعوبهم ، سواء أكان الله هو الذي اختارهم واصطفاهم والهمهم بالرسالة ، أم كانوا هم أنفسهم الذين اهتدوا بتجردهم الى وجود الله خالقهم الأوحد وشعروا عن طريق التأمل والحكمة بحاجة شعوبهم الى اتباع صراطه المستقيم دواما .

وغني عن البيان أن الأنبياء جميعا يستحقون تقديرنا واحترامنا كرواد أبطال للتقدم الانساني ، ولكنه من الخطأ أن ننزع الى المبالغة في طبيعتهم أو في وضعهم كبشر ، وأن نعطي من الاهتمام لأشخاصهم وتاريخ حياتهم أكثر مما نعطي لمبادئهم وعقائدهم . فقد ينعت نبي بواسطة أتباعه المغالين صديقا أو ابنا لله سبحانه وتعالى ، ولكن مثل هذا الأسلوب البدائي في الاعراب عن التقدير والولاء ، انما ينتج أساسا عن المبالغة والتعصب . والواقع أن جميع الأنبيان بشر ، كانوا يسيرون في الشوارع والأسواق ويأكلون ويشربون مما يأكل ويشرب الناس ! « **وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا** » (٧٢)

---

(٧٢) سورة الفرقان ، الآية ٢٠

ولقد كان من العسير على أكثر الناس فى مثل تلك العصور المظلمة التى سادتها الجهالة والخرافة ، وعندما كان الانسان لا يزال فى مرحلة أولية من مراحل التقدم ، أن يعتقدوا فى الرسل والأنبياء كرجال عاديين مثلهم وكثيرا ما كانوا يسألون رسلهم أن يأتوهم بالله ليروه ، أو أن يحضروا معهم بعض الملائكة ، أو أن يأتوهم بأدلة مادية كانوا يسمونهابالمعجزات أو الآيات أو الخوارق ! وهكذا كان ذلك التحدى البدائى الساذج لأغلب أن لم يكن لجميع الأنبياء من نوح الى محمد « **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا** »(٧٣) « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين » (٧٤) ومما قيل للأنبياء أيضا . « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى اليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون أن تتبعون الا رجلا مسحورا . » (٧٥) ولقد كان جواب نوح ومحمد على مثل هذا التحدى الساذج واحدا تقريبا ، ولعله يكفى هنا أن نذكر جواب محمد (٧٦) « **قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا ما يوحى الى** » (٧٧) وهكذا كان شأن جميع الأنبياء . لقد وضعوا كل ثقتهم فى الله وتوكلوا عليه فى مواجهة ذلك التحدى بايمانهم الذى لا يتزعزع . « قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن

(٧٣) سورة الفرقان ، الآية ٢١
(٧٤) سورة العنكبوت ، الآية ٥٠
(٧٥) سورة الفرقان الايتان ٧ ، ٨
(٧٦) يرجع الى جواب نوح فى الآية ٣١ من سورة هود
(٧٧) سورة الأنعام ، الآية ٥٠

الله وعلى الله فليتوكل المؤمنـــون . وما لنـا الا نتـوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما اذيتمونا وعلى الله فليتـوكل المتوكلون » (٧٨) لقد كان الأنبياء بشر شأن كل البشر . وما كان هذا ليكون أمرا عجيبا يثير الدهشة . « أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة ، فاذكروا آلاء الله لعلـكم تفلحون » (٧٩) ولم يكن محمد رسول الله مجرد رجل من رجال قومه ، بل كان أيضا أمياً شأن غالبية أبناء شـــعبه . وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون »(٨٠) ولقد كانت هذه الحقيقة وحدها وفى حد ذاتها أقوى وأعظم اقناعا من أية معجزة يمكن احساسها ماديا . « أو لم يكفهم أنا أنزلنـــا عليـك الـــكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمـــة وذكرى لقوم يؤمنون (٨١) وهكذا كان من الاعجاز والعملى فى نفس الوقت أن يبعث الله برسول أمى لتعليم وهداية قوم أميين ! ((**هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتـاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين)) (٨٢) .**

ان قصة حياة النبى محمد لم ترد فى القرآن كما جاءت قصة موسى فى التوراة ، أو قصة المســيح فى الانجيـل ، بل ان كفـاح الكثيرين من الأنبياء قد ذكر باختصار فى القرآن وفى عدة سور ، ليس كقصص حياة كاملة ولكن كدروس أو عبر من التاريخ . ونحن اذا جمعنا هذه الدروس والعبر لألفت فى مجموعها نظرية علمية

---

(٧٨) سورة ابراهيم ، الآيتان ١١،١٢

(٧٩) سورة الأعراف ، الآية ٦٩

(٨٠) سورة العنكبوت ، الآية ٤٨

(٨١) سورة العنكبوت ، الآية ٥١

(٨٢) سورة الجمعة ، الآية ٢

يمكن تسميتها بنظرية التفسير الروحى أو المعنوى للتاريخ » ألم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به ، وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب . »(٨٣) ان هذه الأقوام وأمثالها قد تنكرت للرسل ورفضت أن تتبع الطريق المستقيم فكان الدمار والفناء نهايتها الحتمية . **« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . »** (٨٤) « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (٨٥) . ولقد أبرز القرآن مصير هذه القرون والأجيال ونهايتها المريرة تذكرة وتحذيرا للأجيال المستقبلة **« أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ، ان فى ذلك لآيات أفلا يسمعون »** (٨٦) « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٨٧) وانا لنجد الكثير من أمثال هذه الدروس أو عبر التاريخ فى عدة سور من القرآن الكريم » (٨٨) . وهذه الدروس توضح بجلاء أن لا عذر لهؤلاء الذين كفروا بالله وتنكروا لرسله ، حيث تمت تذكرتهم وتبصيرهم

---

(٨٣) سورة ابراهيم ، الآية ٩

(٨٤) سورة آل عمران ، الآية ١٣٧

(٨٥) سورة يونس ، الآيتان ١٤،١٣

(٨٦) سورة السجدة ، الآية ٢٦

(٨٧) سورة الروم ، الآية ٩

(٨٨) ارجع الى سورة الأعراف (الآيتان ٥،٤) وسورة الحج (الآية ٤٥) الخ

بالانذار الواجب عن طريق الرسل والأنبياء « وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين » (٨٩) . وهكذا بعث الله بالرسل كمذكرين ومنذرين الواحد بعد الآخر « ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون » (٩٠) ولم يذكر القرآن على سبيل الحصر كل هؤلاء الأنبياء والرسل ، بل حرص على أن يؤكد أن هناك أنبياء عدا من خصهم بالذكر وليسوا بالمعروفين لنا . « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما » (٩١) . وهكذا يعترف الاسلام بجميع الرسل الذين جاءوا قبل محمد بما فيهم هؤلاء الذين يعلمهم الله ولا نعلمهم نحن . «**والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك** »(٩٢) ولا يجيز الاسلام التفرقة أو المفاضلة بين الرسل كأن يؤمن الناس بالبعض دون البعض الآخر أو **يفضلون بعض الرسل على البعض الآخر** .«ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا » (٩٣) ذلك لأن جميع الأنبياء قد اصطفاهم الله والهمهم لأداء الرسالة . وهم أن اختلفوا فى وسائلهم وتفاصيل تعاليمهم ، الا أن جوهر رسالتهم كان واحدا فى جميع الحالات . وقد أمروا جميعا أن لا يجاوزوا حدود مثل هذه الرسالة المحددة . ولما كان اتباع بعض الأنبياء قد نزعوا

---

(٨٩) سورة الشعراء ، الآيتان ٢٠٨،٢٠٩

(٩٠) سورة المؤمنون ، الآية ٤٤

(٩١) سورة النساء ، الآيتان ١٦٤،١٦٥

(٩٢) سورة البقرة ، الآية ٤

(٩٣) سورة النساء ، الآيتان ١٥٠،١٥١

الى المبالغة والانحراف فى تجسيم أعمالهم بعد وفاتهم ، لم يفت الاسلام أن يتخذ من الضمانات ما يمنع تكرار مثل هذه المبالغات أو الانحرافات . فمحمد وعيسى وموسى وسائر الأنبياء سموا بشرا ذوى طاقات وسلطات محدودة بطبيعتها ، وما كان لهم أن يتجاوزوها ! انهم لا يستطيعون أن يهدوا من يحبون أو أن يغفروا لهم الذنوب . فذلك نوح لم يستطع هداية أو انقاذ ابنه . كما لم يستطع لوط هداية أو انقاذ زوجته . وبالمثل لم يوفق ابراهيم فى هداية والده ! ولقد واجه الله سبحانه وتعالى سيدنا محمد بهذه الحقيقة القائلة ((**انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين .**)) (٩٤) فهو لا يستطيع أن يفعل كرسول الله ما هو أكثر من ابلاغ الرسالة تاركا لقومه حرية الاختيار ((**انا انزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل.**))(٩٥) وليس للرسول أن يسعى للمغفرة عن هؤلاء الذين لم يوفق الى هدايتهم . فالله وحده هو الذى يغفر أو يستجيب للدعاء بالمغفرة ! ((**قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين .**)) (٩٦) وفى سورة التوبة يبدو مفهوم الغفران أكثر دقة وشدة « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين . » (٩٧) وطبقا لهذه المفاهيم الاسلامية لطاقات وسلطات الأنبياء وحدودها ، يكون من الخطأ تجسيم العقيدة فى الرسول كما فعل المسيحيون ! ان

---

(٩٤) سورة القصص ، الآية ٥٦
(٩٥) سورة الزمر ، الآية ٤١
(٩٦) سورة فصلت ، الآية ٦
(٩٧) سورة التوبة ، الآية ٨٠

العقيدة هي التى تضم وتستوعب الرسول ، وما كان لرسول أن يتجسدها أو أن يتجسد الله سبحانه وتعالى . ولقد قضى الاسلام بلا ذاتية الرسل ، وأبرز انهم يموتون كبشر ولكن الدين حى باق الى الابد ! **وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ·** »(٩٨) وبالمثل نرى فى كثير من آيات القرآن ما يؤكد نكران ذات الرسول محمد ، بما فيها تلك التى اقتبسناها من قبل · فهو لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا الا بمشيئة الله سبحانه وتعالى ((**قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله لكل أمة أجل اذا جاء أجلهم فلايستأخرون ساعة ولا يستقدمون**)) (٩٩) ولقد نزع البعض فيما يبدو الى تجاهل تلك الحقائق واخذوا يمنون على الرسول انهم أسلموا ، فاستنكر القرآن مثل هذه النزعات أو الانحرافات . ((**يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين .**)) (١٠٠)

ليس مفهوم أو مبدأ لا ذاتية الأنبياء هذا الا مظهرا واحدا من مظاهر واقعية الاسلام وتوافقه مع العلم فيما يختص بطبيعة الأنبياء ورسالتهم . وثمة مثل آخر لهذه الواقعية وهذا التوافق ، ألا وهو ذلك الذى يدور حول التحليل العلمى للوضع الاقتصادى والاجتماعى لهؤلاء الذين ناصروا الأنبياء وهؤلاء الذين حاربوهم . فالأنبياء لم يجدوا بالضرورة تأييدا من قبائلهم أو عائلاتهم وأصدقائهم . بل هم على نقيض ذلك تعرضوا لمحاربة من كان يظن أنهم انصارهم منطقيا . وكما شهد يسوع نفسه « أن ليس لنبى

---

(٩٨) سورة آل عمران ، الآية ١٤٤

(٩٩) سورة يونس ، الآية ٤٩

(١٠٠) سورة الحجرات ، الآية ١٧

كرامة فى وطنه » (١٠١) وبالمثل نرى محمـــدا قد تعرض لحرب عنيفة واضطهاد بالغ من قبيلته قريش . الأمر الذى اضطره الى الهرب من مكة ، حيث اشتدت عليه حملات الاضطهاد وتعــرض لمؤامرات الاغتيال ، الى يثرب أو المدينة المنورة حيث تجمع الكثيرون من الأنصار المخلصين ، مما يتيح له أن يتخذ من تلك المدينة ملجأ ونقطة ارتكاز لرد عدوان الكفار فى المستقبل ، ولم يقف محمـد فى هذا الصراع وحده ، بل أيدته صحابة مخلصة من المؤمنـين المتحمسين العاملين ، اى وقف بجانبه عدد من الأتباع والأنصار شأن غالبية الأنبياء الآخرين . « وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لـما أصابهم فى سـبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » (١٠٢) ولقد ضرب هؤلاء الربيون ، أى انصار الرب ، أروع الأمثـال البطولية فى الاخلاص والوفاء والتضحية للأجيال التالية لهم . **« من المؤمنين رجال صـدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »** (١٠٣) . وانه لمن المهم أن نسأل ، من كان هؤلاء الأنصار ؟ والى أى طبقـات أو فئات المجتمع الانسانى ينتمون ؟ وهل كانت لهم مصالح خاصة قائمة أو مرتقبة فى تأييد أو معارضة الرسل ؟ وفى الجانب الآخر من كان هؤلاء الذين وقفوا موقف العـداء من رسل الله وحاربوهم ؟ وماذا كانت طبقاتهم ومصالحهم الخاصة ؟ نحن اذا حللنا حركات كفاح المسيح ومحمد وسائر الأنبياء والمرسلين لخرجنا من هذا التحليل بنتائج لها أهميتها العلميـة الكبيرة . فالذين شدوا أزر الأنبياء وكافحوا الى جانبهم كانوا أساسا من جماهير الفقراء والمظلومين مع نخبة من أهل الحكمة والبصـيرة

---

(١٠١) العهد الجديد ، انجيل يوحنا ، الاصحاح الرابع فقرة ٤٤

(١٠٢) سورة آل عمران ، الآية ١٤٦

(١٠٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢٣

وأنصار التقدم . بينما نجد على رأس قائمة الذين عارضوا الأنبياء وحاربوهم الطغاة والأغنياء والرجعيين والعابثين والمتبعين أهواءهم ولسوف نركز اهتمامنا فى هذا الفصل على تحليل وضع المعارضين فقط ، متخذين مرجعنا بالنسبة لكل فئة معارضة من آيات القرآن الكريم .

الذين عارضوا الأنبياء :

لم تكن رسالة الأنبياء بالبسيطة أو السهلة ، فلقد قوبلوا بالانكار والسخرية بل والاعتداء والحرب . وكان عليهم جميعا أن يواصلوا الكفاح فى وجه خصوم أقوياء ذوى جبروت وبطش . ولكن الله أيدهم بنصره ، وكان انتصارهم فى جميع الحالات نتيجة طبيعية أو حتمية لتطورات الأحداث . وفى كل حالة كان هذا الانتصار انتصارا للحكمة والتقدم والعدالة . « **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله** »(١٠٤) . « سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا (١٠٥) لقد هزم وسحق جميع الأقوياء والأغنياء الذين وقفوا موقف العداء من الله ورسله . ولسوف نتناول بالتحليل كلا من فئات هؤلاء الخصوم على حده .

---

(١٠٤) سورة الأنعام ، الآية ٣٤

(١٠٥) سورة الأحزاب ، الآية ٣٨ - ومن الآيات الأخرى المؤكدة لنفس المعنى «سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا» - سورة الاسراء ، الآية ٧٧ ، «فلن تجد لسنة الله تبديلا» - سورة فاطر ، الآية ٤٣ وهاتان الآيتان تعبران أقوى تعبير عن الحتمية التى لا تقبل التحويل أو التبديل كقانون الهى ثابت .

١ ـ الطغاة والمتكبرون والجبابرة :

لقد حورب نوح بصفة أساسيـة من الطبقـة العليـا لقومه « قال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلـكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين »(١٠٦) . **وقال الملأ من قـومه الذين كفروا وكذبوا بلقـاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ماهذا الا بشر مثلـكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون** » (١٠٧) . وثمة مثل آخر جـدير بأن نعيه وهو الخاص بقبائل عاد « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون » (١٠٨) . أما عن الكفاح بين موسى وفرعون مصر فأمره معروف للجميع . لقـد أمر الله موسى وأخاه هارون ان يكافحا طغيان فرعون وبغيه . « اذهبا الى فرعون انه طغى » (١٠٩) . الا أن فرعون كان مستعليا يعتقد أنه أكبر من أن يؤمن ! « وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فـكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخـذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون » (١١٠) وهكذا كانت الكبرياء فى نظر القرآن من الأسباب الرئيسية للـكفر . فأغلب الـكفرة هم الذين « استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » (١١١) .

---

(١٠٦) سورة المؤمنون ، الآية ٢٤
(١٠٧) سورة المؤمنون ، الآية ٣٣
(١٠٨) سورة فصلت ، الآية ١٥
(١٠٩) سورة طه ، الآية ٤٣
(١١٠) سورة العنكبوت ، الآيتان ٣٩،٤٠
(١١١) سورة الفرقان ، الآية ٢١

٢ ــ الأغنياء والمترفون :

لقد وقف الأغنياء وهؤلاء الذين يحيون حياة الترف عموما موقف العداء من الأنبياء لأنهم وجدوا فى حركاتهم التقدمية الطابع مايهدد مصالحهم الخاصة « وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين . قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لايعلمون » (١١٢) . وما كانت أموال هؤلاء المترفين وأولادهم لتقيهم عذاب الله أو لتحول دون نهايتهم المحتومة . « لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (١١٣) ولقد مر السيد المسيح بنفس التجربة مع الأغنياء والمترفين فقال **« مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله »** (١١٤) .

٣ ــ الرجعيون :

من الطبيعى أن يكون بين الفئات التى وقفت موقف العداء من الأنبياء وقاومت حركاتهم للتحرر المعنوى والاجتماعى فئةالرجعيين المتمسكين بالقديم والنافرين من التجاوب مع الأفكار الجديدة . وكثيرا ما كانوا يقولون لأنبيائهم « ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فآتونا بسلطان مبين » (١١٥) . **« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير »** (١١٦) .

(١١٢) سورة سبا ، الآيات ٣٤ــ٣٦
(١١٣) سورة المجادلة ، الآية ١٧
(١١٤) العهد الجديد ، انجيل مرقس الاصحاح ١٠ الفقرة ٢٥
(١١٥) سورة ابراهيم ، الآية ١٠
(١١٦) سورة لقمان ، الآية ٢١

ولم يكن موقف هؤلاء راجعا لمجرد التمسك بالقديم والنفور من الجديد ، ولكنه كان يرجع أساسا الى الخوف من أن يمس التغيير أو التجديد مصالحهم الذاتية التقليدية أى انهم يبررون احتفاظهم بالوضع القائم بأنه كان هو المعمول به عند الآباء والأجداد . وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » .

٤ ـ الضعفاء والجبناء :

من الناس فريق ما كان ليتوانى عن الاستجابة لدعوة الأنبياء ولكنه كان أضعف وأجبن من أن يقدم على ذلك . وهذا الفريق من الناس لا يجرؤ على أن يتخذ موقفا يختلف عن ذلك الذى يتخذه السادة وأصحاب النفوذ والكبراء ، حتى ولو خالف ضميره ومشاعره الحقيقية « **وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا** » (١١٧) ومثل هؤلاء الرجال الذين أعوزتهم الشجاعة ليختاروا لأنفسهم وليفكروا بأنفسهم قد اتخذوا الكفار أولياء « من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ، فان العزة لله جميعا » (١١٨) وما أروع مايصور القرآن موقف هؤلاء الضعفاء « عندما يواجهون الله سبحانه وتعالى هم وأسيادهم : « وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا ، انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ، قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » (١١٩) .

---

(١١٧) سورة الأحزاب ، الآية ٦٧
(١١٨) سورة النساء ، الآية ١٣٩
(١١٩) سورة ابراهيم ، الآية ٢١

٥ ـ الجهـــال :

ويعد الجهـــل وما يصحبه من قلة المعرفة وضعف الادراك من أخطر أســباب الكفر . « **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** » (١٢٠) . والواقع أن الأنبياء انما أرسلوا لقومهم ليبددوا الجهالة وليخرجوا الناس من الظلمات الى النور . ولقد دعوا قومهم الى المعرفة والحكمة . وهداهم الله لاتباع طريقه المستقيم ، فاتبعوه ولم يتبعوا « **أهواء الذين لايعلمون** » (١٢١) . « قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون » (١٢٢) « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهـــلين » (١٢٣) « ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولـكن أكثرهم يجهلون » (١٢٤) .

٦ ـ اللاهون والعابثون :

ما من مجتمع انسانى يخلو من ذلك الفريق من الناس الذين يتبعون أهواءهم ، فيستحبون الفراغ والبطالة ويحيون حيـــاة اللهو والعبث . ان أمثال هؤلاء لا يجدون ولا يمكن أن يأخـــذوا شيئا على محمل الجد . فهم من النوع الذى لايصلح لشىء كما يسميهم أهل هذا العصر (١٢٥) وقد كان من الطبيعى أن يســخر هذا الفريق من الأنبياء ويستخف بهم فى العصور المـــاضية ، لمجرد انه لا يؤمن بأية قيم ويستخف بجميع القيم . « فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع

---

(١٢٠) سورة الحج ، الآية ٨

(١٢١) سورة الجاثية ، الآية ١٨

(١٢٢) سورة الزمر ، الآية ٦٤

(١٢٣) سورة الأنعام ، الآية ٣٥

(١٢٤) سورة الأنعام ، الآية ١١١

(١٢٥) Good for noihing

هواه بغير هدى من الله ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين » (١٢٦) . **وكذبوا واتبعوا أهواءهم ، وكل أمر مستقر** » (١٢٧) ولقد صور القرآن أخلاق هذا الفريق من الناس أبلغ تصوير : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم » (١٢٨) . وبعض أفراد هذه الفئة يتمشدقون بالثورية وبالدعوة الى التجديد ولكنهم فى حقيقة الأمر لايقدمون على ذلك الا كنوع من الترف الذهنى والتندر بالتقدمية . وغالبا مانسميهم فى عصرنا الحاضر بثوار المقاعد الوثيرة أو بمفكرى الصالونات !

التفسير الروحى للتاريخ :

مثل هذا التحليل الواقعى لتلك الفئات من الناس التى ناصبت الأنبياء العداء وقاومت فكرة الدين كما أبرزناه من واقع القرآن لا يمكن الا أن يكون علميا بليغا . وهو يحدد اطار نظرية علمية يمكن تسميتها بنظرية التفسير الروحى أو المعنوى للتاريخ ، ونحن باختيارنا لهذه التسمية لا نقصد بذلك اتخاذ هذه النظرية كبديل أو شىء مضاد لنظرية كارل ماركس فى التفسير المادى للتاريخ . ففى اعتقادى أن **نظرية ماركس** لا تناقض الاسلام ، لسبب جد بسيط الا وهو أن الجزء لا يمكن أن يجب أو ينقض الكل . فنظرية الاسلام فى تفسير التاريخ أعمق وأعرض ، لأنها تشمل الناحيتين المعنوية والمادية معا ، بينما تلتزم نظرية ماركس الجانب المادى فقط ! والواقع أن ماركس وانجلز قد ركزا كل

---

(١٢٦) سورة القصص ، الآية ٥٠
(١٢٧) سورة القمر ، الآية ٣
(١٢٨) سورة لقمان ، الآيتان ٦،٧

اهتمامهما في الناحيـــة المادية لأنهما كانا متأثرين بالفلسـفات المـادية والتطورية لعصرهم (١٢٩) . كما كانا يجهلان كل شيء عن تقدمية الاسلام لأن دراستهم للأديان وتطورها كانت سطحية أو ضحلة ! فما كان الدين ليكون أفيونا للشعوب ، وما كان لينبثق عن الجهل والخرافة وانما كانت فكرة الدين مرحلة موفقـــة من مراحل تقدم الفكر الانساني . كما لم يكن الأنبيـاء سـحرة أو تجار شعوذة ، بل كانوا محررين اجتماعيين وروحيين . ولقـد حملت حركاتهم التحررية بين طياتها معنى كفاح الطبقات كما بدا لنا واضحا في ذلك التحليل . لقد كان الأنبياء ينشدون مجتمعا لا طبقي تسوده المساواة والعدالة ويعمه الرخاء . وانا لنجد في تعاليمهم الأصول الفكرية لاشتراكيتنا المعاصرة . الأمر الذي يبدو في الاسلام أكثر مما يبدو في أي دين آخر . وهـــذا ما نوه به **((ويلفرد كانتل سميث)) في كتابه ((الاسلام في التاريخ الحديث))** **قائلا : ((انه لأمر عظيم أن نقيم حياة جمـاعية سـليمة على وجه الأرض ! ولا شك أن النظام الاسلامي هو أجدى وأثبت تجربة تمت لتحقيق العدالة بين الناس** . ولقد كان هـذا المشروع حتى ظهور الماركسـية أعظم المحاولات وأكثرها طموحا . الا أن هنالك ثمـة فـرق بين الاســلام والماركسـية ، ألا وهو أن الاسـلام يرى لـكل حادث دنيوي مغزيين ويقيسه بمعيـارين أحدهما وقتي والآخر أبدي أو أخروي » ومع أن كلا من الاسلام والماركسية يعطي أهمية بالغة لتطور التاريخ وحتميته الا أن الاسلام في نظر **ويلفرد سميث** رغم اعترافه بمغزى التاريخ الحاسم ، الا أنه يرى « ان هذا المغزى لايذوب في خضم التاريخ نفسه ، بل يوجد من القيم والأنماط ما يعلو على مجريات التاريخ . والحكم على هذه المجريات

---

(١٢٩) أشير على الأخص الى فلسفة هيجل ونظرية داروين .

يمكن بل يجب أن يكون فى ضوء هذه القيم »(١٣٠) والمقصود بذلك هو القيم الروحية والخلقية التى لا وزن لها فى النظرية الماركسية.

وظيفة الأنبياء وحدود طاقتهم :

لابد لنا لكى نستكمل عرض نظرية الاسلام فى الأنبياء وحركات ظهور الأديان، من أن نتناول بالبحث جانبا آخر من هذه النظرية ، الا وهو الخاص بطبيعة وظيفة الأنبياء وحدود طاقتهم كبشر . ما هى وظيفة النبى أو الرسول ؟ وبأية كيفية ينهض بالتزامات هذه الوظيفة ؟ لقد حدد القرآن بدقة وظيفة الأنبياء ورسالتهم ، كوسطاء بين الله والناس ، أو كحملة لرسالات السماء اليهم . ان وظيفتهم الأساسية هى ابلاغ الرسالة « ما على الرسول الا البلاغ » (١٣١) وقد تأكدت هذه الوظيفة فى آية أخرى بقوله سبحانه وتعالى « **وما على الرسول الا البلاغ المبين** »(١٣٢) ولكن أية رسالة تلك التى يكلف بابلاغها للناس ؟ لقد جاء الجواب فى سورة البقرة واضحا شاملا « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » (١٣٣) ومن وظائف الرسول أيضا تحذير الناس وانذارهم وتبصرتهم« **قل يا أيها الناس انما انا لكم نذير مبين**»(١٣٤) وليس المقصود بالنذير ، ذلك الذى ينذر الناس بما يتعرضون له من عذاب النار أو الجحيم اذا كفروا أو ضلوا السبيل ، وانما وهذا هو الأهم أن يبصر الناس بدروس وعظات التاريخ وهى

---

(١٣٠) Wilfred Cantwell Smith : Islam in Modern History, pp. 32, 33.

(١٣١) سورة المائدة ، الآية ٩٩

(١٣٢) سورة العنكبوت ، الآية ١٨

(١٣٣) سورة البقرة ، الآية ١٥١

(١٣٤) سورة الحج ، الآية ٤٩

مايسميها القرآن « بالنذر » . ولقد عرضنا لها من قبل موضحين انها تؤلف في مجموعها نظرية علمية اطلقنا عليها نظرية التفسير الروحى للتاريخ . ولقد وصف الرسول في القرآن أيضا بالبشير ، أى حامل البشرى الطيبة للمؤمنين **« انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وان من امة الا خلا فيها نذير . »** (١٣٥) **« وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون »**(١٣٦) ويتضح من معنى الآية الأخيرة ان الرسول محمد لم يرسل كبشير ونذير لقومه فحسب ، بل وللانسانية جمعاء . وماكان ليقصد بالبشير أن يقص الرسول على قومه نبوءات خارقة أو يكشف لهم عن الغيب ! وليس المقصود بالبشير أيضا أن يعد الرسول فى بساطة قومه بالجنة أو الخلد . وانما المقصود أن يأتى قومه بالأفكار والنظم التى من شأنها أن تحقق لهم السعادة والرخاء والعدالة والسلم ، ويبعث الرسول أيضا كشاهد على قومه **« يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا »**(١٣٧) وهذا يعنى أن الرسول ليس بمعلم أو واعظ فحسب ، ولكنه داعية تتمخض دعوته عن حركة ايجابية تبقى وتستمر بعد وفاته .

وعلى الرسول أن يعيش عقيدته ومبادئه ، عليه أن يعمل وينفذ كل ما يعظ الناس وما يدعوهم الى عمله وأن يضرب المثل للآخرين ويكون قدوة طيبة لهم ، **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر »** (١٣٨) على الرسول أن ينكر ذاته دائما ، وأن يكون **« سراجا منيرا »** يهدى الناس الى سواء السبيل بنور ايمانه ولا ذاتيته !

---

(١٣٥) سورة فاطر ، الاية ٢٤

(١٣٦) سورة سبا ، الآية ٢٨

(١٣٧) سورة الأحزاب ، الآيتان ٤٥،٤٦

(١٣٨) سورة الأحزاب ، الآية ٢١

الفصل الرابع

القرآن الكريم

« ولقد جئناكم بكتاب
فصلناه على علم »
قرآن كريم

القرآن هو كتاب المسلمين المقدس ، ودستور الجماعة الاسلامية والنظام الاسلامى والعالم الاسلامى وتحيط آياته البينات بكل شىء علما ، وفيها يتلمس الانسان الحلول لجميع مشاكله • أنه بالنسبة للمسلمين لشىء أهم من التوراة بالنسبة لليهود أو الانجيل بالنسبة للمسيحيين • أنه لأعمق مغزى من مجرد كتاب سماوى ! أنه لمعجزة، معجزة حية خالدة • ولسوف تبقى حية أبد الدهر وقادرة على اقناع الناس فى كل مكان وطوال القرون المتعاقبة ! وما كانت مثل هذه المعجزة الحية لتفقد جدتها أو ليعتريها القدم ، لأن مبادئها العامة من الاتساع والشمول والمرونة والحسم بحيث يمكنها أن تتلاءم مع أية ظروف تستجد أو تنشأ عن تطور الفكر الانسانى والطفرات المتعاقبة للتقدم العلمى والفنى •

اليوم أصبحت معجزات الأديان الأخرى جميعا فى ذمة التاريخ! لقد أقنعت هؤلاء الناس الذين رأوها رأى العين أو سمعوا عنها وعاشوا فى زمانها ! فتلك عصى موسى مثلا ، لقد ابتلعت ثعابين سحرة فرعون وشقت البحر الى نصفين منفصلين ، ولكننا لا نستطيع رؤيتها فى عصرنا الحاضر ولو فى أحد المتاحف ! وبالمثل كانت سفينة نوح فى عصره معجزة خارقة ، أما فى عصرنا هذا فان السفن تبدو شيئا عاديا كلعب الأطفال تماما ! وطب عيسى كان هو الآخر معجزة فى عصره ، ولكنه اليوم ينتمى الى تاريخ الأديان أكثر مما ينتمى الى تاريخ الطب !" •

قد يبدو القرآن للناس كتابا لا يختلف فى مظهره عن جميع الكتب الأخرى • وما كانت لتبدو فى هذا معجزة ! وما كان القرآن ليكون أيضا كتابا مقدسا أسقطه الله من السماء على الأرض كما يتصور الأطفال الأبرياء السذج ! انه لم يهبط دفعة واحدة وانما أنزله الله على فترة طويلة ، الآيات تلو الآيات ، وفى مواجهة بعض

المناسبات وتطورات الحوادث فى مدى ربع قرن ! ولقـــد تحدى الكفار معجزة القرآن من هذه الزاوية بنفس الأسلوب الذى يفكر به الأطفال السذج . « **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا** » (١٣٩) هنا تأتى مسألة التوقيت ! فالقرآن ليس بكتاب تاريخ ولا بكتاب نبوءة ، ولكنه كتاب يشرع ويحكم ! وقد أنزلت آيات لتواجه أو لتحسم مواقف أو تطورات معينة . ومن هنا كان من الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار وقت نزول كل من هذه الآيات ، وفى أية ظروف مناسبة ! كما جاء نزول القرآن على دفعات لكى يكون من الميسور تلاوته وحفظه على أوسع نطـاق ممكن . فما أن تنزل آيات جـديدة حتى يسرع الكثيرون الى حفظها عن ظهر قلب . وبهذا تجمع عدد كبـــير من حفظة القرآن . « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** » (١٤٠) وهكذا كان من شأن الطريقة التى نزل بها القرآن على فترات أن ساعدت على الحفاظ على القرآن كما نـزل دون تحريف . فلم تثبت جميع الآيات بالكتابة قبل وفاة الرسول فحسب، بل وفق الكثيرون من المسلمين الى حفظ القرآن فى قلوبهم . الأمر الذى يسر تجميعه وترتيبه فى عهد أبى بكر ، ثم توكيد هذا التجميع واعتماده نصا رسميا للقرآن فى عهد عثمان . وانه لمن المؤكد أن القرآن الكريم قد احتفظ به سليما دون تحريف ، حيث حرص المسلمون الأوائل كل الحرص على أن يتخذوا جميع الاحتياطات والضمانات التى لا تفسح مجالا لتعديله أو تحريفه بمضى الزمن ، مهتدين فى ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى « **انا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون** » (١٤١) .

---

(١٣٩) سورة الفرقان ، الآية ٣٢
(١٤٠) سورة الاسراء ، الآية ١٠٦
(١٤١) سورة الحجر ، الآية ٩

وثمة تحد آخر من تحديات الكفار وهو « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (١٤٢) وقد ظنوا القرآن ميزة كأن من الواجب أن يختص بها الله أحدا من المتميزين ! وساءهم أن يروا القرآن قد نزل على رجل فقير أمى ، وقد غاب عنهم أن هذا هو محور المعجزة ! وأن أحدا لم يكن يتصور أن مثل هذا الرجل لا يعرف كيف يقرأ ويكتب يستطيع تلاوة مثل هذه الآيات الفذة التى ليس لها مثيل ولا يمكن مقارنتها بأى شىء آخر ! فهى ليست بشعر ولا بنثر ، وأسلوبها موسيقى فذ ، ينفرد بالبساطة ويفسر نفسه بنفسه ! انه الأسلوب المثالى عند الذين ينطقون العربية ، وما كان لأعظم كتابهـــا وأكثرهم حذقا أن يجارى هذا الأسلوب أو يبـــلغ مستواه الفذ ! ومثل هذا الأسلوب الذى لا يمكن تقليده أو الوصول اليه ، لا يمكن لبشر أن يبتدعه أو يزيفه « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ٠ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (١٤٣) وحتى **الرسول محمد** الذى نزل عليه القرآن ما كان ليستطيع أن يبتدع لنفسه من دون الله سورة بل آية واحدة ! كما لم يكن فى استطاعته صلى الله عليه وسلم أن يعجل بنزول الآيات «**لا تحرك به لســانك لتعجل به** (١٤٤) ولكن حاول الكفار احراج الرسول أو توريطه دون جدوى ! ٠

« وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا ٠ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا

---

(١٤٢) سورة الزخرف ، الآية ٣١ ــ المقصود بالقريتين مكة والطائف كبرتا مدن شبه الجزيرة العربية يومئذ ٠

(١٤٣) سورة يونس ، الآيتان ٣٧ ، ٣٨

(١٤٤) سورة القيامة ، الآية ١٦

قليلا . اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا . »(١٤٥) وهكذا بفضل رعاية الله وتثبيته لمحمد ، فشلت محاولات الكفار لتوريطه فى تعديل أو تحوير أو تبديل آيات الكتاب المقدس ، وما كان ليستطيع أن يتورط معهم فى مثل ذلك « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، ان أتبع الا ما يوحى الى انى أخاف أن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون . **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته انه لا يفلح المجرمون** » (١٤٦) .

لم تكن تجربة محمد الاعجازية مع القرآن ، كما أوضحنا ، بالتجربة السهلة ! فقد كانت بدايتها جد مذهلة ، ذلك انه حدث فى ليلة من ليالى أواخر شهر رمضان ، وبينما كان محمد مستغرقا فى تأملاته فى غار حراء ، أن فوجىء على غير انتظار بنزول الآية الأولى من القرآن . لقد كان محمد يومئذ فى الأربعين من عمره رجلا مكتمل الرجولة واسع الأفق أو الادراك شئون العالم الذى عاش فيه ، وقد ترحل كتاجر فى الكثير من البلاد واختلط بالكثير من الأقوام والشعوب : هذا على الرغم من أنه لم يكن ليعرف القراءة والكتابة . « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون » (١٤٧) ولكم روعه أن يسمع ذلك الصوت الوقور الجدى يدعوه فى اصرار الى القراءة . « اقرأ » قالها الصوت أكثر من مرة والرسول محمد يجيب

(١٤٥) سورة الاسراء ، الآيات ٧٣-٧٥
(١٤٦) سورة يونس ، الآيات ١٥-١٧
(١٤٧) سورة العنكبوت ، الآية ٤٨

« ما أنا بقارىء » وقد حار محمد جوابا وأحس بمزيج من الرهبة والارتباك .. كيف يقرأ وماذا يقرأ وهو الذى لايعرف القراءة ؟ ! ولكن الصوت صوت جبريل الوقور استمر يدعوه الى القراءة أو التلاوة بادئا بأولى آيات القرآن » .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم (١٤٨) .

ولقد كانت هذه أوفق وأعظم فاتحة لآيات القرآن الكريم ، انها دعوة الى العلم ، والمزيد من العلم والمعرفة دائما « ولقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » (١٤٩) انه زاخر بالحكمة وبدروس وعبر التاريخ وأبلغ الأمثال . **« ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآن عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون »** (١٥٠) انه لكتاب منير يخرج الناس « من الظلمات الى النور » (١٥١) . وما كان لهذا النور الالهى أن يخمد أو ينطفىء ، بل سيظل ساطعا دائما أبدا يهدى الانسانية الى ما فيه خيرها لأنه نور الله الخالد العزيز الحكيم .

ولقد سميت آيات القرآن فى بعض سوره بكلمات الله . ووصفت هذه الكلمات بأنها لا حصر لها ولا يمكن أن تعد أو تنفذ ! « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » (١٥٢) . « ولو أن ما فى

---

(١٤٨) سورة العلق ، الآيات ١ـ٥
(١٤٩) سورة الأعراف ، الآية ٥٢
(١٥٠) سورة الزمر ، الآيتان ٢٧،٢٨
(١٥١) سورة ابراهيم ، الآية ١
(١٥٢) سورة الكهف ، الآية ١١٠

الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم » (١٥٣) . وليس المقصود بهاتين الآيتين الكريمتين أن كلمات الله سبحانه وتعالى من ضخامة العدد بحيث لايمكن حصرها . وانما المقصود هو توضيح كونها خالدة ! فهذه الكلمات لا يمكن أن تفنى أو تمحى أو يعفو عليها الدهر ! وما هذه الا احدى الخصائص الاعجازية للقرآن .

أما الخصائص والمميزات الأخرى فنلخصها فيما يلى :

آ ــ ان القرآن يفسر نفسه بنفسه لأن الله سبحانه وتعالى وهو الذى أنزل القرآن ، هو ولا شك الأقدر على تفسير آياته جميعا . ومن هنا لايجوز أن يكون تفسير القرآن حرفة أو احتكارا لفئة من وسطاء الدين ! « ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرءآنه . ثم ان علينا بيانه » (١٥٤) وقد تأكدت هذه الحقيقة فى سورة أخرى من القرآن : « لقد انزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » (١٥٥) . « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الألباب» (١٥٦) وما أيسر أن يدرك كل من يقرأ القرآن بامعان ولأكثر من مرة ، هذا الأسلوب الذى فسر نفسه بنفسه وقدرته الفذة على الاقناع ومن هنا كانت آيات القرآن متكاملة ، يكمل ويؤكد ويوضح بعضها

---

(١٥٣) سورة لقمان ، الآية ٢٧
(١٥٤) سورة القيامة ، الآيات ١٧ــ١٨
(١٥٥) سورة النور ، الآية ٤٦
(١٥٦) سورة آل عمران ، الآية ٧

البعض الآخر . وانه لمن أبرز الأمثلة المبرزة لتكامل آيات القرآن تلك الآيات التى اقتبسناها فى المواضع المناسبة من هذا الكتاب واستخلصنا منها نظريات علمية مترابطة وواضحة .

٢ — تتميز آيات القرآن الكريم أكثر ما تتميز بكونها سلسلة سهلة يمكن تذكرها وحفظها بكل سهولة . وهكذا يعتمد القرآن أكثر ما يعتمد فى تيسير حفظه على البساطة والنسق والتكرار والمقاطع الموسيقية « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»(١٥٧) وهذه الآيات كررت فى نفس السورة أكثر من مرة على سبيل التذكرة والتوكيد . وما لفظ الذكر الا أحد الأسماء التى أطلقها القرآن على نفسه ، لأنه يذكر الناس دائما بدروس وعبر التاريخ. « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم »(١٥٨) .

٣ — ان القرآن يتلى أو يرتل بأسلوب موسيقى وقور يشيع جوا من الاحترام والرهبة الالهية . والقراءة المثالية للقرآن هى **((الترتيل))** ولا مثيل لهذه الكلمة فى اللغات الأجنبية . وما أكثر مايشعر الأجانب الذين لايفهمون اللغة العربية بهذا الجو الربانى فيغلب عليهم التأثر عندما يستمعون الى القرآن يتلى ! (١٥٩)

« قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا » (١٦٠) حتى الجبل لو سمع القرآن تأثر به ! « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا

(١٥٧) سورة القمر ، الآيات ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ .

(١٥٨) سورة النساء ، الآية ٢٦ .

(١٥٩) نذكر على سبيل المثال قول الفريد جويلوم فى كتابه « الاسلام » ان للقرآن « نسق له جماله الفذ ونغم تطرب له الأذن » .
Alfred Guillaume : Islam — Pelican Books PP. 73-74.

(١٦٠) سورة الاسراء ، الآية ١٠٧ .

متصدعا من خشيـــــة الله وتلك الأمثـــال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (١٦١) .

ونظرا لقداسة القرآن هذه يجب أن يحافظ المسلمون على احترامه وأن يحيطوه دائما بالوقار الواجب فلا يلمسونه الا وهم متطهرون ((**انه لقرآن كريم . فى كتـاب مكنون . لا يمسه الا المطهرون**)) (١٦٢) .

وفى كل من الصلوات الخمس تتلى الفاتحة مع بعض آيات القـــرآن . كما انه من المستحب ترتيل القرآن وقتما يكون ذلك مستطاعا ، والأفضل هو ترتيله فى الفجر استقبالا لليوم الجديد بآيات الله البينات التى تذكر وتطهر وتقى وتريح أو تحرر النفس من عوامل المعصية أو اليـأس أو الفساد ((**قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء**)) (١٦٣) فالقرآن يشفى الانسان ويقيـه السوء لأنه يهدى الى الصراط المستقيم ، تاركا للفرد حرية الاختيـــار بين الخير والشر وفقا لمصلحته الخاصة . وهذه المصلحة انما هى فى اتباع الخير والالتزام به دائما . « **انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسـه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل**)) (١٦٤) .

محتويات القرآن :

ان محتويات القرآن جمة فقد أحاط هذا الـكتاب بكل شىء علمـا ، وتنـاول بالبحث حياة البشر من كل جانب . اذ عالجها

(١٦١) سورة الحشر ، الآية ٢١ .
(١٦٢) « الواقعة ، الآيات ٧٧ الى ٧٩ .
(١٦٣) سورة فصلت ، الآية ٤٤
(١٦٤) سورة الزمر ، الآية ٤١ .

من النواحي الروحيــــة والخلقية والاقتصادية والاجتماعيــــة والسياسية . وما كان نطاق هـــذا الفصل ليتسع لبحث هذه الجوانب جميعا التي ألمعنا اليها في الفصل الأول والتي ســنعود الى دراستها بتفصيل أكثر في الفصول التالية ولعله يكفي بالنسبة لأغراض هـــذا الفصل أن نقدم تصنيفا موضوعيا اجماليــا لآيات القرآن .

وفيما يلي بيان موجز بمحتويات هذا التصنيف :

أولا ــ أكد القرآن التعاليم والمبـــادىء التي وردت في الكتب المقدسة السابقة « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه » (١٦٥) ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لمـــا معهم » (١٦٦) وفي الوقت الذي يؤكد فيه القرآن هذه التعاليم والمبـــادىء ، نراه لا يألو جهدا في تصحيح بعض الانحرافات أو حسم بعض المسائل المتنـــازع على تفسيرها أو تطبيقها ، أو يظهر من جـــديد بعض الحقائق التي أخفاها المغرضون من أهل الكتاب « كان النـــاس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لمـــا اختلفوا فيـــه من الحق باذنه والله يهدي من يشـــاء الى صراط مستقيم » (١٦٧) واقـــد خص القـــرآن بالذكر الخلافات والمنازعات بين بني اسرائيل من بعد موسى وعيسى . « ان هـــذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » (١٦٨)

---

(١٦٥) سورة الأنعام ، الآية ٩٢ .

(١٦٦) سورة البقرة ، الآية ٨٩ .

(١٦٧) سورة البقرة ، الآية ٢١٣ .

(١٦٨) سورة النمل ، الآية ٧٦ .

ولقد حدث فى غمار مثل هذه المنازعات أن حرفت أو أخفيت بعض الآيات من الكتب المقدسة القديمة ، فقام القرآن باظهارها من جديد « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور » (١٦٩) .

ثانيا : يصور القرآن آيات وشواهد الخلق على نحو يصل بالانسان عن طريق التأمل وامعان الفكر الى الاعتقاد فى وجود الله العلى القدير والخالق الأوحد . وقد سبق أن عرضنا لهذا الجانب من القرآن فى الفصل الثانى الخاص بالخلق والخالق .

ثالثا : يضرب القرآن لكثير من الأمثلة ويسوق العديد من دروس التاريخ بغية تذكرة الناس وتحذيرهم وهكذا كانت الآيات والنذر عماد القرآن كأجدى وسائل الاقناع ولقد تناولنا بالبحث موضوع النذر أو دروس الماضى فى الفصل الثالث الخاص بالأنبياء فى معرض الحديث عن وظيفتهم كمذكرين ومنذرين .

رابعا : يؤكد القرآن حقيقة وجود الآخرة معطيا افكارا اجمالية عامة عن الجنة والنار . ولئن كان ذكر الساعة أو الآخرة قد جاء فى سور كثيرة من القرآن ، الا أن التفاصيل المغرقة فى عالم الأسرار لم تكن موضعا للاهتمام . حيث ركز الاهتمام على حقيقة واحدة فقط ، وهى ان الذين يفعلون الخير هم أصحاب الجنة ، والذين يفعلون الشر هم أصحاب النار . أما كيف ستكون الجنة وكيف ستكون النار ، فقد عالج القرآن هذا الموضوع بايجاز معتمدا على التصوير المجازى والنفسى دون استطراد الى التفاصيل .

---

(١٦٩) سورة المائدة ، الآيتان ١٥ ، ١٦ .

خامسا : أرسى القرآن قواعد عبادات المسلمين والتزاماتهم ونخص منها بالذكر الصلاة والصوم ، والحج والزكاة .

سادسا : تابع القرآن ودعم الأسس والقيم الخلقية للمجتمع الانسانى مستطردا الى دقائق السلوك الحسن والذوق السليم على نحو لا نرى ما يماثله فى الكتب المقدسة السابقة .

سابعا : يجب أن نشير باختصار الى الجانب التشريعى للقرآن. فقد أرسى القرآن بشرائعه الدقيقة قواعد المجتمع الاسلامى وأسس الدولة الاسلامية والعالم الاسلامى أيضا . ولسوف نتناول هذه القواعد والأسس بالبحث فى الفصول التالية من هذا الكتاب .

ثامنا : لانجد فى القرآن الا قليلا من النبوءات بالمقارنة الى الكتب المقدسة الأخرى . وأهم . هذه النبوءات اعلان سيدنا محمد خاتم للانبياء والاسلام ختام تطور الأديان ، أى الدين الذى يتوج جميع الأديان السابقة . ومما هو جدير بالذكر أن القرآن لم يتعرض فى نبوءته لموعد قيام الساعة أو حلول القيامة ، لأن مثل هذه الأمور تخص الله وعلمها عنده وحده . واذا كان هناك من النبوءات ما نحرص على تسجيله هنا ، فهو أن بعض هذه النبوءات المتعلقة بالخلق يغلب عليها الطابع العلمى وقد أثبت صحتها تطور العلم الحديث ، وما كان الناس ليدركوا كنهها قبل الكشوف والتقدمات العلمية الأخيرة . مثال ذلك غزو الانسان للفضاء الذى يبشر بامكان سفره الى الكواكب ، لقد تنبأت به بعض آيات القرآن « فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر اذا اتسق . لتركبن

طبقا عن طبق » (١٧٠) كما تنبأ القرآن بدخان مميت شبيه بالغبار الذرى « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم » (١٧١) وما هذين الا مثالين واضحين للتوافق بين نبوءات القرآن وتطورات العلم الحديث .

---

(١٧٠) سورة الانشقاق ـ الآية ١٩ .
(١٧١) سورة الدخان ـ الآية ١٠ .

الفصل الخامس

معنى الإسلام

«ومن يسلم وجهه الى الله وهو
محسن فقد استمسك بالعروة
الوثقى والى الله عاقبة الأمور»
قرآن كريم

انه لمن العسير أن نجد في اللغة الانجليزية أو في أية لغة أجنبية أخرى لفظا يقابل تماما لفظ ((**الاسلام**)) في اللغة العربية . فلقد اختار الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم هذا اللفظ كاسم أو عنوان للعقيدة التي أنزلها على محمد . ((**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا**)) (١٧٢) كما ثبت القرآن هذا الاسم في آية أخرى ((**ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم** (١٧٣) وهذه الآية الأخرى توسع مدلول أو نطاق كلمة الاسلام بحيث تشمل جميع عقائد الدين الخالص النقي الصادق قبل ظهور الدين الاسلامي . أما كلمة ((**المسلمين**)) فتعني هؤلاء الذين اسلموا ، أو بعبارة أوضح الذين اسلموا لمشيئة الله وهدايته • وقد استخدمها القرآن أيضا لوصف المؤمنين بالله عموما حتى ولو كانوا قد عاشوا قبل الاسلام بمئات أو آلاف السنين ولنبدأ بنوح واتباعه الذي نعتهم القرآن بالمسلمين ((**واتل عليهم** نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون • فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين)) (١٧٤) كما سمى ابراهيم أيضا حنيفا مسلما ((ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن حنيفا مسلما وما كان من المشركين)) (١٧٥) كذلك سحرة فرعون قد وصفوا في القرآن أيضا بالمسلمين ، حيث أعلنوا ايمانهم بالله ورسوله بعد أن رأوا موسى يبدد أسحارهم بمعجزاته الالهية.

---

(١٧٢) سورة المائدة ، الآية ٣

(١٧٣) سورة آل عمران ، الآية ١٩

(١٧٤) سورة يونس ، الآيتان ٧١ ، ٧٢

(١٧٥) سورة آل عمران ، الآية ٦٧

الأمر الذى أثار عليهم غضب فرعون فواجهوا تهديداته فى ثبات قائلين « وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » (١٧٦) وبالمثل نعت القرآن تلاميذ المسيح بالمسلمين **« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من انصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون »**(١٧٧) وكقاعدة عامة يعد من المسلمين كل من آمنوا بالله وأسلموا اليه قيادهم كلية واختيارا رغم أنهم عاشوا قبل ظهور الاسلام كدين ! « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين »(١٧٨) وغنى عن البيان أن المسلمين لم يختاروا لأنفسهم هذا الاسم ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى اختاره لهم فى كتابه الكريم **« هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير »** (١٧٩) وهكذا يبدو بوضوح من الآيات سالفة الذكر ان كلمة الاسلام لا تعنى العقيدة الاسلامية التى أنزلها الله على محمد فحسب ، بل تعنى أيضا أن الدين واحد ، لأن الله واحد . وما فكرة الاسلام اليه سبحانه وتعالى الا محور الأديان جميعا . وهذا يعنى أن دين الاسلام لم يأت لنقض الأديان السابقة ، وانما جاء ليكملها ويبسطها ويوحدها . ولقد عرف القرآن معنى الاسلام تعريفا دقيقا واضحا بما يفيد ان المسلم هو من يسلم أمره الى الله تسليما كاملا حرا . « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة

---

(١٧٦) سورة الأعراف ، الآية ١٢٦

(١٧٧) سورة آل عمران ، الآية ٥٢

(١٧٨) سورة القصص الآيتان ٥٢ ، ٥٣

(١٧٩) سورة الحج الآية ٧٨

ابراهيم حنيفا (١٨٠) ولقد تأكد نفس التعريف فى آية أخرى من سورة لقمان « ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور » (١٨١) .

ولئن كان الاسلام بهذا التعـريف يعنى اسلام أمورنا جميعـا الى الله والتوكل الايجابى عليه سبحانه وتعالى ، فهذا لا يعنى التواكل أو القدرية السلبية بأية حال . وينزع بعض الكتاب الغربيين فيما يبدو الى اساءة فهم المعنى الحقيقى للاسلام أو التسليم ، ومن ثم يعتبرون الدين الاسلامى هو المسئول عن انتشار روح التواكل فى كثير من مناطق الشرق . مع أن المسلمين الأوائل كانوا على نقيض ذلك أبعد ما يكونون عن التواكل ، فقد كانوا دائما عاملين ايجابيين دائبى الحركة والنمو والتطور ، ودولة مطردة التقدم والاتسـاع . ولم يكن ظهور التواكل فى بعض المجتمعات الاسلامية الا عرضا مؤقتا يرجع الى تسرب بعض العناصر الدخيلة والعوامل الخارجية فى فترات النكسة ، ولا علاقة له بجوهر الاسلام . فما كانت الهزائم أو الأمراض الوقتية التى تصيب بعض المجتمعات الاسلامية لتعنى هزيمة الاسلام وعلينا أن نفرق دائما بين مزايا العقيـدة وبين مزايا هؤلاء الذين يزعمون الايمان بها . فالاسلام لا يغير من أخلاق وطباع الناس ما لم يسلموا فعلا ويكونوا على استعداد جدى لتغيير ما بأنفسهم . واذا نسى الناس عقيدتهم لا يمكنهم أن يرتفعوا بمستوى حياتهم الى مستوى هذه العقيدة ! « **ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » (١٨٢)

ومما هو جدير بالذكر ان الاسلام بمعنى ان يسلم الانسـان

---

(١٨٠) سورة لنساء ، الآية ١٢٥

(١٨١) سورة لقمان ، الآية ٢٢

(١٨٢) سورة لرعد ، الآية ١١

امره كليا وطواعية لله ، انما يحل السلام والسكينة فى نفس المسلم ، كما يولد فيها الشعور بالكرامة ولا يمكن أن يوحى بالامتهان بأية حال ! وشعار المسلمين ((**الله أكبر**)) هذا الشعار الذى يستخدمونه مرارا فى الصلاة والحج والوعظ انما يعنى اننا انما نسلم لمن هو أكبر من الجميع ، لمن هو أكبر من أى شخص آخر أو أى شىء آخر ! انه الله الأكبر من الطغاة والمستغلين والمستبدين ! ونحن باسلام أمرنا اليه لا نخاف شيئا ولا يمكن أن نستذل لبشر ! مثل هـــذا الدليل الكريم للاسلام كما جاء به الدين الاسلامى ، قد اتخذته أخيرا احدى الجمعيات الروحية الدولية محورا لدعوتها وهى جماعة « **التسلح الخلقى** » (١٨٣) وما الحركة التى تقوم بها هـــذه الجماعة الا دعوة عامة للعودة الى الايمان واحياء مبدأ التـآخى بين المؤمنين ، مع التسليم الحر الكامل لله سبحانه وتعالى طبقا لمفاهيم الاسلام . حيث أن من أبرز مبادئها « ان نسلم حياتنا الماضية والحاضرة والمستقبلة لله سائلين حمايته وهدايته وان نصغى الى هداية الله ونقبلها ونعتمد عليها فى كل شىء » .

ومن شعارات الاسلام ومبادئه الأساسية أيضا « **التوحيد** » بمعنى وحدة الله ووحدة العقيدة . فشعار المسلمين «**لا اله الا الله**» يعد حجر الزاوية فى صرح عقيدتهم . وما بداية الاسلام الا ترديد ذلك الشعار «**لا اله الا الله** » . ولقد خصصت احدى سور القرآن لمبدأ التوحيد ، وهى سورة مركزة حاسمة تحمل اسم التوحيد ويعتبرها الكثيرون من الشراح خلاصة القرآن لأنها تتعلق بطبيعة الله وجوهره « **قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم**

---

(١٨٣) أسس هذه الحركة فرانك بوخمان ، وكانت تعرف فى أول الأمر بجماعة أوكسفورد نسبة الى جامعة أكسفورد ثم انتشرت دوليا واتخذت مقرها فى « كو » بسويسرا .

يكن له كفوا أحد » (١٨٤) ولمبدأ التوحيد نطاقه الأوسع من مفهوم الإله الواحد . اذ هو يدعو الى توحيد وتنميط جميع الرسالات المقدسة . ولقد كان للاسلام فضل المبادءة فى هذه الدعوة الى التفاهم المشترك وتوحيد العقيدة «**قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون** » (١٨٥) ولقد أمر الله الرسول بأن يحسن معاملة أهل الكتاب الذين اعتبروا اخوة فى الدين كما أوضحنا فى الفصل الأول « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » (١٨٦) ولقد أكد القرآن نفس المبدأ فى سورة أخرى . « وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضى بينهم وأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير . » (١٨٧)

بمثل هذه الروح الطيبة السمحة والاستعداد الجدى للتفاهم المشترك دعا الاسلام الناس الى الايمان به بدون ضغط أو اكراه « **لا اكراه فى الدين** » ولكن الاسلام يتميز رغم سماحته هذه بالحسم والثبات ولا يفسح مجالا لانصاف الحلول . كما لا يسمح بأى

---

(١٨٤) تحمل هذه السورة فى أغلب المصاحف اسم « الاخلاص » ولكنها تحمل فى الترجمة الانجليزية وبعض المصاحف اسم التوحيد .

(١٨٥) سورة آل عمران ، الآية ٦٤

(١٨٦) سورة العنكبوت ، الآية ٤٦

(١٨٧) سورة « الشورى » الآيتان ١٤ ، ١٥

اتفاق مع الكفرة أو المشركين على حساب المبدأ . ويبدو لنا هــذا الحسم اوضح ما يكون فى سورة الكافرين : « **قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم ولا انتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين.** »(١٨٨) وفى الوقت الذى لا يسمح فيه الاسلام بانصاف الحلول أو المقاربة على حساب المبدأ ، نراه لا يسمح ايضا بالتزمت أو التعصب . فالمسلمون يطالبون دائما بأن يحتفظوا فى علاقاتهم مع الآخرين بسعة الأفق ورحابة الصدر وبأن يفتحوا قلوبهم للناس ، ويسيروا فى أرض الله الواسعة ويتعايشوا تعايشا سلميا مع جميع الأقوام والشــعوب وان مبادىء وقواعد دينهم لمن العموم والمرونة بحيث يستطيعون أن يواجهوا دائما تغيرات ظروف وأوضاع الانسان فى مختلف المناطق وفى كل العصور .ولا توجد مشقة فى الفروض أو العبادات الاسلامية ، كما لا يعطى أقل اهتمام للطقوس والشكليات الجامدة اذ الاتجاه العام هو التيسير وليس التعسير ((**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**)) . (١٨٩) ومما يدل على يسر القرآن ما يبيحه للمسلمين من تيسيرات أو اعفاءات فى اداء الفروض والعبادات ، اذا اقتضت ظروفهم العامة أو الخاصة ذلك . وكذلك لمواجهة بعض المواقف فلا يوجد تزمت أو جمود مثل ما عند اليهود بالنسبة ليوم السبت ، بل ان الاسلام يستنكر الجمود ويدعو المسلمين الى تجديد وتحسين وتوكيد رســـائلهم ونظمهم وأساليب معيشتهم من وقت لآخر ، بشرط ان يكون ذلك داخل الاطار العام لمبادئه الأساسية ولمواجهة الظروف دائبة التغير فى عالمنا المتطور . ومن هنا كان الاسلام دينا حركيا تقدميا بفضل عموم ومرونة مبادئه وقابلية وسائله للتكيف والتطور ، وهذا ما أكده محمد بقوله « ان

---

(١٨٨) سورة « الكافرون » الآيات ١ ــ ٦

(١٨٩) سورة البقرة ، الآية ١٨٥

الله يبعث على رأس كل مائة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » ونحن نقرر حقيقة واقعة اذا قلنا ان المبادىء الأساسية للاسلام ستظل بهذا الوضع قابلة للتطبيق ، ولن يأتى اليوم الذى تطرح فيه جانبا مهما حقق الانسان من تقدم علمى أو فنى ، ومهما نمت مداركة ومعـــارفه بالتالى ، ذلك لأن الاســـلام انما يدعو الى الدأب على تحصيل العلم والاستزادة من المعرفة **«وما أوتيتم من العلم الا قليلا»** (١٩٠) ولهذا يجب أن يسعى الانسان للاستزادة من العلم ، وقل رب زدنى علما (١٩١) وكلما ازداد الانسان علما كلما ازداد قـــدرا عند الله وعند الناس « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (١٩٢) وفى كل هذا ما يدل على أن التعليم فى نظر الاسلام عملية مستمرة . وانه لا يزال امام الانسانية مجالات جديدة وآفاق أوسع للعلم والمعرفة . وحتى لو تصورنا ان الانسان قد أحاط علما بكل شىء فى الوجود ، فان الله يضيف الى الخلق مالا نعلم « ويخلق ما لا تعلمون » (١٩٣) والاسلام اذ ينظر مثل هذه النظرة الحركية والتقدمية الى العلم ، انما يقى المسلمين أخطـــاء كل من الجمود والغرور . فهم لا يقفون جامدين غير متجاوبين مع تقدم العلم من جهة ، كما لا يركبهم الغرور من جهة أخرى فيزعمون أنهم قد بلغوا غاية العلم أو انهم أعلم أهل الأرض وليسوا فى حاجة الى طلب العلم عند الآخرين ، وما أبلغ قول الرسول « **اطلبوا العلم ولو فى الصين** » والمسلم لا يطلب العلم لنفسه ، أو ليضن به على الآخرين ويترفع به عليهم ، وانما يتزود به ليزود به الآخرين . وهذا ما يدعو اليه الحديث الشريف « **خيركم من تعلم العلم وعلمه** » .

---

(١٩٠) سورة الاسراء ، الآية ٨٥

(١٩١) سورة طه ، الآية ١١٤

(١٩٢) سورة الزمر ، الآية ٩

(١٩٣) سورة النحل ، الآية ٨

الفصل السادس

المقومات الخلقية للمجتمع الإسلامي

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

حديث شريف

كان العنصر الغالب في جميع الأديان ، كما أوضحنا في الفصل الأول الخاص بنشأة وتطور الدين هو انتهاج أساليب خلقية للمعيشة . حيث كانت القيم الخلقية والسلوكية في غياب القانون والحكومات كاملة السلطة والسيادة أمرا لا غنى عنه للحفاظ على المجتمع الانساني وضمان حسن سيره واستقراره ورفاهية أعضائه وأمنهم . ولعل أديان الشرق الأقصى ، وعلى الأخص البوذية والكونفوشية هي أوضح مثل لهذه الحقيقة كأديان لا تمثل رسالات سماوية بمعنى الكلمة ولكنها تمثل ما حاولت أن تخطه الحكمة الملهمة للانسان من أساليب قويمة للحياة الخلقية السليمة ! ولقد جاءت وصايا موسى العشر بأساس معنوى صالح لارساء المقومات الخلقية للمجتمع الانساني ، ثم تابع السيد المسيح هذه الوصايا موجها اهتمامه الى النواحي الوقائية بوجه أخص ، الى أن جاء الاسلام فاتخذ خطوات أبعد ليس في اتجاه تدعيم وتقوية الأسس والقيم الخلقية فحسب ، ولكن باستكمالها أيضا برتوش دقيقة من السلوك الحسن والذوق العام . وما أسرع ما تحول العرب من حياة البداوة الخشنة التي كانوا يحيونها قبل ظهور الاسلام الى أمة متقدمة رقيقة بفضل هذا الدين التقدمي الشامل . « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئكهم المفلحون**»(١٩٤) الأمر الذى يدل على ان رسالة الاسلام لم تقف عند حد توحيد الأديان وتنقية العقيدة واقامة الشعائر والعبادات ، ولكنها استهدفت أيضا هدفا رئيسيا لا يقل أهمية ألا وهو خلق المجتمع الانساني المثالي ، المجتمع المثالي من حيث سلوك أفراده ومعاملاتهم وعلاقاتهم بالآخرين وبعضهم بالبعض الآخر . ولا تقاس مزايا مثل هذا المجتمع المثالي بالمظاهر أو الشعائر المتعصبة ، وانما تقاس بسلوك الأفراد المكونين له في شتى نواحي حياتهم اليومية . « **ليس البر أن تولوا**

(١٩٤) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤

وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البـــأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» (١٩٥)
وعلى الأفراد المكونين للمجتمع الانسانى أن يحسنوا التصرف والسلوك كأفراد وكجماعات فى نفس الوقت ، وأن يعاونوا بعضهم البعض الآخر فى التزام الصراط المستقيم وفى الصمود أمام مختلف أنواع المغريات التى من شأنها أن تسبب انحرافهم أو حيدتهم عنه ! « **وتعـاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعـدوان ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب»** (١٩٦) ولهذه الآية الكريمة مغزاها العميق من زاوية السلوك الجماعى ومبـادىء علم النفس . ذلك أن الأفراد قد يرتكبون من الجرائم والآثام وهم فى مجموعة مالا يجرأون على ارتكابه كأفراد . لأنهم يكونون فى المجموعـة عادة أكثر نزوعا للعدوان ! وتلك حقيقة أيدها علم النفس الحديث بعد أن أكدتها قبله تلك الآية الكريمة بمئات السنين ! وادراك هذه الحقيقة ووعيها يساعدان على سد الثغرات فى السلوك الانسانى . وهكذا يبـدو لنا على العموم أن المبـادىء الخلقية للاسلام لم تكن مجـرد مادة للوعظ ، بل كانت بصفة أساسية مبادىء ايجابية حكيمة بنيت على الواقع والتحليل العلمى للسـلوك الانسانى . وانهـا لم تكن تستهدف تكوين عادة الخير فحسب ، بل استهدفت أيضا خلق وازع داخلى ومقـاومة ذاتية قوية للشر ! فما أكثر الأشـياء التى تجذب الانسان فى هذه الدنيا وتضعه موضع الاغراء والاختبار الدقيق ! « **قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله**

---

(١٩٥) سورة البقرة ، الآية ١٧٧
(١٩٦) سورة المائدة ، الآية ٢

يا أولى الألباب لعلكم تفلحون »(١٩٧) واذا ما فشل الانسان مرة أو أكثر من مرة فى مقاومة الاغراء والانتصار عليه ، يجب عليه أن يتشجع ولا يستسلم لليأس • فالباب لا يزال مفتوحا للغفران بشرط أن تكون التوبة حقيقية وأن يخلص الانسان فى عودته الى الصراط المستقيم • فما أوسع أبواب الرحمة عند الله الرحمن الرحيم الغفور التواب ! ولولا هذه الرحمة وهذا الاستعداد الرحيم للغفران ، بل وهذا الفهم الواقعى الحكيم للطبيعة الانسانية لا نصرف عن الخير كلية الشخص الذى يخطىء مرة ، ولاستمر فى ارتكاب الأخطاء والآثام ! وانما هو يشجع على عمل الخير باعطائه الفرصة للتكفير عن الخطأ ! وسرعان ما تساعد أعمال الناس الطيبة على خلاصهم من أعمالهم السيئة • ولكن هذا لا يعنى ان المسألة مسألة موازنة حسابية بين هذين النوعين من الأعمال ! بل يقيم سلوك الانسان ويحكم عليه ككل ، ولا بد لمسئوليته أن تتكامل ولشخصيته أن تلتئم ! وهو اذ يتوب ويأخذ بسبيل الصراط المستقيم ، يتعين عليه أن يستمر فى اتباعه • قد تصادفه نكساب، أو لحظات حرجة من لحظات الاغراء ، ولكن عليه دائما أن يتغلب على ضعفه ولا يترك نفسه يحيد ! وما كان الله ليحمله فوق طاقته أو ليكلفه فوق ما يحتمل « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**»(١٩٨) •

لقد ترك الاسلام للانسان حرية الاختيار مع تحمل مسئولية ما يفعل • انه يعلم ما هو خير ، كما يعلم ما هو شر أيضا ! « **انا**

---

(١٩٧) سورة المائدة ، الآية ١٠٠

(١٩٨) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦

أنزلنا عليك الكتاب بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل»(١٩٩) وهكذا يتحمل كل فرد مسئولية ما يفعل ، أو يجنى ثمرة ما يفعل ٠ انه يجنى النتائج الطيبة اذا فعل الخير ٠ ويعانى من النتائج السلبية اذا فعل الشر « **ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها** »(٢٠٠) ولقد سبق أن أشرنا الى مبدأ مسئولية الانسان فى الفصل الخاص بالأنبياء ورسالتهم موضحين وظيفتهم كمنذرين ما عليهم الا ابلاغ الرسالة الى الناس تاركين لهم حرية العمل مع تحمل مسئولية ما يفعلون ٠ « **من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** »(٢٠١) وعلى الأنبياء أيضا أن يتحملوا مسئولية ما يعملون ٠ عليهم أن يعظوا وينذروا ويضربوا المثل للآخرين بأن يعملوا أنفسهم ما يدعون الغير الى عمله ٠ « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** »(٢٠٢) وكما عاش محمد عقيدته قولا وعملا يجب على المجتمع الاسلامى أن يعيش عقيدته دائما ٠ فيكون كل فرد فى هذا المجتمع قدوة حسنة للآخرين ٠ وهذا يعنى أن يبدأ كل فرد بنفسه ويضرب لاخوانه المثل فى حسن التصرف والسلوك ٠ وأن لا ينزع نزعة سلبية فيطالب الآخرين بأن يغيروا هم ما بأنفسهم أولا قبل أن يبدأ هو بتغيير ما بنفسه ! ذلك لأنه اذا ما انتظر كل فرد أن يبدأ الآخرون ، لن يبدأ أحد قط ولن يغير الناس ما بأنفسهم قط « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** »(٢٠٣) وانا لنرى الناس يترددون فى كثير من

---

(١٩٩) سورة الزمر ، الآية ٤١
(٢٠٠) سورة الاسراء ، الآية ٧
(٢٠١) سورة الاسراء ، الآية ١٥
(٢٠٢) سورة الأحزاب ، الآية ٢١
(٢٠٣) سورة الرعد ، الآية ١١

الحالات فى أن يتجـددوا أو يغيروا ما بأنفسهم . انهم يواجهـون الكثير من المغريات وليس من اليسير أن يصمدوا فى مواجهتهـا طويلا ! فلماذا يكونون هم البادئون بالتضحية أو التنازل عن مثل هذه المغريات ؟ هنا وهنا فقط يكون التحدى ! « **انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** »(٢٠٤) .

على كل فرد فى المجتمع الاسلامى أن يتحمل مسئولية كاملة نحو نفسه ونحو هذا المجتمع ونحو العالم أجمع ولولا هذه المسئولية أو حرية الاختيار التى خص بها الله الانسان لكان البشر قطيعا من الحيوانات أو أمة من الآليين (روبوت» ! « **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولـكن يضل من يشاء ويهدى من يشـاء ولتسئلن عما كنتم تعملون** »(٢٠٥) ان المسئولية التى خص بها الله الانسـان كخليفته فى الأرض مسئولية جد خطيرة ! ولهذا نعتها القـرآن بالأمانة أى الوكالة . « **انا عـرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبـال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان انه كان ظلوما جهـولا** »(٢٠٦) ولقد سمى الانسان جهولا لأنه لا يعرف فى حالات كثيرة كيف يستخدم ويستفيد من مثل هذه الأمانة أو المسئوليـة فهو يعلم ما هو خير ، ورغم هذا يعجز عن التزامه . كما يعلم أيضا ما هو شر ، ومع هـذا يسعى اليه بارادته الحـرة . وهو اذ يسىء استخدام مسئوليته بمثل هذا الغباء ، انما يكون « ظلوما » لنفسه ويعرض مجتمعه للدمار والكوارث ! « **ان الله لا يظلم الناس شـيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون**»(٢٠٧) .

---

(٢٠٤) سورة الكهف ، الآية ٧
(٢٠٥) سورة النحل ، الآية ٩٣
(٢٠٦) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢
(٢٠٧) سورة يونس ، الآية ٤٤

وهكذا منح الانســان الأمانة أو المسئوليــة ، ولم يتركه الله وشأنه بل علمه عن طريق الدين كيف يستخدمها وطفق يحــذره وينــذره من وقت لآخر بالأمثال الواقعية وبدروس التاريخ لــكى يتجنب النتائج السلبية لاساءة استخدامها ، ولكى يحد من نزوعه الى الغرور والصلف والكبرياء الكاذب ! « **٠٠ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ، وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثــال** »(٢٠٨) ان على الانسان أن يعرف حدوده ويلزمها دائما ٠ فهو رغم اعطائه الأمانة أو المسئولية لا يزال وسيظل عاجزا عن أن يتحكم فى قدره ! وانه لفى اليوم الذى يظن فيه الانسان المغرور واهما أنه يستطيع ذلك ، ليقضى على نفســه بالهلاك ويدمر صرح مدينته الأرضــية تماما ! « **حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليهــا أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصــيدا كأن لم تغن بالأمس** »(٢٠٩) ٠

الأخلاق والسلوك الحسن والذوق العام :

أكمل الاســلام كما أوضحنا من قبــل الرسالة الخلقية للأديان السابقة بمتابعة وتقوية القيم الخلقية واستكمالها بدقائق السلوك الحسن والذوق العام ٠ فبعد أن جاءت المسيحية وتابعت وصــايا موسى العشر خطا الاســلام خطوات أبعد فى توكيد هذه الوصــايا وباضــافة كثير من التفاصيل والتحسينات ولنــأخذ كمثال محدد تحريم قتل الانسان لأخيه الانسان ٠ لقد تضمنت الشريعةالموسوية هذا المبدأ وأكدته المسيحية من بعدها ، ولكن الاسلام دعمه بقواعد أكثر انسانية ونبلا « **من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيــل أنه**

---

(٢٠٨) سورة ابراهيم الآيتان ٤٤ ، ٤٥

(٢٠٩) سورة يونس ، الآية ٢٤

من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل النــاس جميعا »(٢١٠) وفى هذا أبلغ تصوير لفظاعة جريمة القتل • ومن أجل هــذا قضى الله بأن كل من يقتل أخاه فى الانسانيــة لا بد أن يقتل لحماية الجماعة الانسانية عموما من تلك الجريمة • « **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون** »(٢١١) الا أن عقوبة الاعدام لا تسرى بالنسبة للقتل دفاعا عن النفس أو بالنسبة للقتل الخطأ « **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله ، الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليمـا حكيما**» (٢١٢) ولقد أكد الاسلام أيضا تحريم الزنا والسرقة والربا وشهادة الزور ، وأضاف الى قائمة التحريم بعض الآثام الأخرى مثل الخمر والميسر • كما استنكر الفتنة استنكارا قويا صارخا باعتبارها « **أشد من القتل** »(٢١٣) وحــرم الاسلام الرشوة والفساد بصــفة عامة • « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحــكام **لتأكلوا فريقا من أموال النــاس بالاثم وأنتم تعلمون** »(٢١٤) كمــا حرم الفضــول والريبــة والتشهير والغيبــة والنميمة • « **ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** »(٢١٥) وهذا يعنى أن لا يدس الانسان أنفه فيما لا يعنيه

---

(٢١٠) سورة المائدة ، الآية ٣٢

(٢١١) سورة البقرة ، الآية ١٧٩

(٢١٢) سورة النساء ، الآية ٩٢

(٢١٣) سورة البقرة ، الآية ١٩١

(٢١٤) سورة البـ[illegible]

(٢١٥) سورة الاسراء ، الآية [illegible]

ويدفعه الفضول الى انتهاك حرمة الآخرين • ويسرى نفس المبدأ على التجسس « **ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم** »(٢١٦) « **ولا تطع كل حلاف مهين • هماز مشاء بنميم • مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم** »(٢١٧) ويصل الاسلام الى أبعد من هذا فيحرم على المسلمين أن يستمعوا الى هواة الفضائح وغواة التشهير، ويستحثهم على أن يتحققوا ويتثبتوا من صحة كل نبأ « **يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**»(٢١٨) وعموما يجب على المسلمين أن يعرضوا عن اللغو وفضول الهذر • « **والذين هم عن اللغو معرضون** »(٢١٩) ويجب عليهم أيضا أن لا يتحدثوا عن أنفسهم بزهو وتفاخر ويستعلوا على الآخرين ويسخروا منهم « **ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا** »(٢٢٠) « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »(٢٢١) ان مثل هذه السلبيات أو العادات السيئة تعد جميعا من ضروب اللغو والعبث ، التى يجدر بالمسلمين أن ينأوا عنها ولا يشاركوا بأية حال فيها بل يترفعون عنها كراما • « **والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما** »(٢٢٢) وكمبدأ عام تعامل الأقوال

---

(٢١٦) سورة الحجرات ، الآية ١٢

(٢١٧) سورة القلم ، الآية ١ ــ ١٣

(٢١٨) سورة الحجرات ، الآية ٦

(٢١٩) سورة المؤمنون ، الآية ٣

(٢٢٠) سورة النساء ، الآية ٣٦

(١٢١) سورة الحجرات ، الآية ١١

(٢٢٢) سورة الفرقان ، الآية ٧٢

معاملة الأفعال ۰ ولا تستوى فى نظر الاسلام الكلمة الطيبة مع الكلمة السيئة ۰ « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلهاثابت و فرعها فى السماء تؤتىأكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ۰ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء »(٢٢٣) ۰

وتشمل قائمة التحريم أيضا الكثير من دقائق السلوك الحسن والذوق العام ، نذكر منها ما جاء بهذه الآيات :

١ ـ « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ۰ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير»(٢٢٤) ۰

٢ ـ « ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا »(٢٢٥) ۰

٣ ـ « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ۰ ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ۰ ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ۰ ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم »(٢٢٦) ۰

---

(٢٢٣) سورة ابراهيم ، الآيات ٢٤ ـ ٢٧
(٢٢٤) سورة لقمان ، الآيتان ١٨ ، ١٩
(٢٢٥) سورة الاسراء ، الآية ٣٧
(٢٢٦) سورة الحجرات ، الآيات ٢ ـ ٥

٤ ــ « يا أيهــا الذين آمنوا لا تدخلوا بيــوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون • فان لم تجدوا فيها أحدا فــلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لــكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم »(٢٢٧) •

٥ ــ « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق واذا سألتموهن متاعا فاسئلوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن »(٢٢٨) •

٦ ــ « فاما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » (٢٢٩) •

ليس جانب النهى أو التحريم فى فلسفة الاسلام الأخلاقية الا جانبا يسيرا من تلك الفلسفة ، التى تركز اهتمامها فى الجــانب الايجابى باعتباره الأكثر فاعلية كما تؤيد ذلك مبادىء علم النفس الحديث • ولا أخال مجال هذا الكتاب يتسع لدراسة شاملة لتفاصيل هذا الجانب • ولعله يكفى لابراز أهميته أن نورد هنا بعض الآيات المختارة من القرآن الكريم مصنفة كتعاليم أو كأمثلة نظرية ، دون أية محاولة لمناقشة ما اذا كان المسلمون المعاصرون يعيشون فعــلا هذه التعاليم والمبادىء • وحسب هذه المبادىء ان المسلمين الأوائل، قد عاشوها فعلا ، ووفقوا كل التوفيق فى اقامة دولة عظيمة مزدهرة يسودها الرخاء والرفاهية ويظلها الاطمئنان والاستقرار • ان هذه التعاليم والمبادىء جزء لا يتجزأ من العقيدة الاسلامية ، ويجب أن تحترم وتتبع فى كل عصر • وما كانت جدتها لتبلى وقيمتهــــا

(٢٢٧) سورة النور ، الآيتان ٢٧ ، ٢٨

(٢٢٨) سورة الأحزاب ، الآية ٥٣

(٢٢٩) سورة الآيتان ٩ ، ١٠

انتضاءل فى مجتمع راشد يعرف يقينا أين مصلحته ·

هذه التعاليم والمبادىء يمكن تلخيصها فيما يلى :

الحق والصدق والأمانة :

١ ـ « ولا تلبسـوا الحق بالبـاطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون »(٢٣٠) ·

٢ ـ « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود »(٢٣١) ·

٣ ـ « والذين هم لآماناتهم وعهدهم راعون »(٢٣٢) ·

٤ ـ « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا »(٢٣٣) ·

٥ ـ « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(٢٣٤) ·

٦ ـ ((·· الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »(٢٣٥) ·

العـدل :

٧ ـ « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله

---

(٢٣٠) سورة البقرة ، الآية ٤٠

(٢٣١) سورة المائدة ، الآية ١

(٢٣٢) سورة المؤمنون ، الآية ٨

(٢٣٣) سورة البقرة الآية ١٧٧

(٢٣٤) سورة النساء ، ، الآية ٥٨

(٢٣٥) سورة العصر ، الآية ٣

أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا »(٢٣٦) .

٨ ـ « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط** ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون »(٢٣٧) .

٩ ـ « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان** »(٢٣٨) .

وواضح من تلك الآيات ان المسلم مكلف بالتزام العدل حتى ولو كان ما يقضى به العدل ضد شخصه وعائلته وأصدقائه . وعليه أن يعدل دائما حتى مع عدوه ، دون أن تؤثر عاطفته فى حرصه على العدالة .

الحياء والتواضع :

١٠ ـ « **قد أفلح المؤمنون** . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون »(٢٣٩) .

١١ ـ « **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا** واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»(٢٤٠) :

١٢ ـ « **ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا**»(٢٤١) .

---

(٢٣٦) سورة النساء ، الآية ١٣٥

(٢٣٧) سورة المائدة ، الآية ٨

(٢٣٨) سورة النحل ، الآية ٩٠

(٢٣٩) سورة المؤمنون ، الآيات ١ ـ ٣

(٢٤٠) سورة الفرقان ، الآية ٦٣

(٢٤١) سورة لقمان ، الآية ١٨

١٣ ـ « **انه لا يحب المستكبرين** »(٢٤٢) ٠

المعروف والطيبة والتسامح :

١٤ ـ « **يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف** وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور»(٢٤٣) ٠

١٥ ـ «**قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى**»(٢٤٤)

١٦ ـ « **ولا تعثوا فى الأرض مفسدين**»(٢٤٥) ٠

١٧ ـ « **وبالوالدين احسانا** وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا »(٢٤٦) ٠

١٨ ـ « **ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون**»(٢٤٧) ٠

١٩ ـ « **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة** ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم»(٢٤٨) ٠

٢٠ ـ « **من يشفع شفاعة حسنة** يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها»(٢٤٩) ٠

---

(٢٤٢) سورة النحل ، الآية ٢٣
(٢٤٣) سورة لقمان ، الآية ١٧ ٠
(٢٤٤) سورة البقرة ، الآية ٢٦٣
(٢٤٥) سورة هود ، الآية ٨٥
(٢٤٦) سورة النساء ، الآية ٣٦
(٢٤٧) سورة المؤمنون الآية ٩٦
(٢٤٨) سورة فصلت ، الآية ٣
(٢٤٩) سورة النساء ، الآية ٨٥

العفة والطهارة :

٢١ ـ « **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون • وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها»(٢٥٠) •

٢٢ ـ « **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا** حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم»(٢٥١) •

٢٣ ـ « **ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا**»(٢٥٢)

٢٤ ـ « **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم** فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا • واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فاعرضوا عنهما ان الله كان توابا رحيما»(٢٥٣) •

احترام وطاعة الوالدين :

٢٥ ـ « **ووصينا الانسان بوالديه احسانا** حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا»(٢٥٤) •

---

(٢٥٠) سورة النور ، الآيتان ٣٠ ، ٣١
(٢٥١) سورة النور ، الآية ٣٣
(٢٥٢) سورة الاسراء ، الآية ٣٢
(٢٥٣) سورة النساء ، الآيتان ١٥ ، ١٦
(٢٥٤) سورة الأحقاف ، الآية ١٥

٢٦ - « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا»(٢٥٥) •

ولئن كانت طاعة الوالدين واجبة طبقا لتعاليم الاسلام ، الا أن هذه التعاليم تحل الأبناء من الالتزام بهذه الطاعة بالنسبة للشرك بالله ومعصية أوامره سبحانه وتعالى • « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون»(٢٥٦) •

الاحسان :

يدعو الاسلام شأن جميع الأديان الأخرى الى الاحسان ويباركه• والمقصود بالاحسان هو بذل الخيرات واعطاء الصدقات ، بالاضافة الى فريضة الزكاة ، الى المحتاجين والمعوزين والفئات المماثلة • « **انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**»(٢٥٧) ويحرم الاسلام تحريما قاطعا أن تكون الصدقات مصحوبة بالتفاخر أو الاذلال • « **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس**»(٢٥٨) وعلى المتصدق أن يأخذ فى اعتباره دائما أنه انما يعطى للمتصدق

---

(٢٥٥) سورة الاسراء ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤

(٢٥٦) سورة لقمان ، الآية ١٥

(٢٥٧) سورة التوبة ، الآية ٦٠

(٢٥٨) سورة البقرة ، الآية ٢٦٤

عليهم حقهم ولا يشجع التسول • والتصدق بهذا المعنى الكريم انما يعد جـــزءا لا يتجزأ من دورة الانفاق المريحة التى ســـنعود الى مناقشتها تفصيلا كنظرية اقتصادية علمية فى الفصل التالى الخاص بالمبادىء والنظم الاقتصادية للاسلام •

وضع المرأة فى المجتمع الاسلامى :

لقد قيل الكثير وكتب الكثير عن وضع المرأة فى المجتمـــع الاسلامى • وغالبا ما تركز الدعايات المغرضة والمضادة للاســـلام حملاتها فى هذا الموضوع كأحد الجبهات الرئيسية للمعركة ! وما كنا لنعنى فى هذا الفصل بالدفاع عن الاسلام ضد مثل هذه الدعايات المغرضة ، بقدر عنايتنا باعطاء صورة صادقة لوضع المرأة فى مجتمع اسلامى حق ! ولا يفوتنا أن ننوه بوجوب اغفال الوضع القـــائم للمرأة فى بعض المجتمعات الاسلامية التى لا تعيش تماما مبـادىء الاسلام • أو لا تعيشـــها كما يجب ، طالما لا يتصـل هذا الوضع بعقيدة الاسلام فى شىء • ولسوف نعتمد فى تحليلنا النظـرى على القرآن كلية • الا أنه يحسن من الناحيتين العملية والحركية ، أن نستهل هذا التحليل بمقارنة موجزة بين وضع المرأة العربية قبـل الاسلام وبعده • لقد كانت المرأة العربية قبل ظهور الاسلام تعامل كمتاع أو كم مهمل ، وكان تعدد الزوجات هو القاعدة • وكثيرون كانوا يتبعون ذلك التقليد الاجرامى بوأد البنات المولودات حديثا، أى دفنهن أحياء ! وعموما كانت المرأة تعامل ككائن أدنى من الرجل فلا يجوز أن تتمتع بكل ما يتمتع به من حقوق • كان هذا هـــو الوضع الأليم للمرأة العربية فى عصور الجاهلية ، فماذا فعـــل الاسلام لمواجهته وتغييره ؟ لقد حرر الاسلام المرأة وحرم وأد البنات تحريما باتا وحقق للمرأة أن تتساوى مساواة كاملة مع الرجل • ولا عجب فقد رأينا بعض النساء فى طليعة هؤلاء الذين كانوا أسبق

الناس الى الايمان بالدين الجديد ، ومنهن من تعرضن للتعذيب والاضطهاد • كما رأينا بعض النساء يتركن عائلاتهن ويهاجرن مؤمنات الى المدينة • وخلال المعارك الحربية التى دارت بين المسلمين والكفار عقب الهجرة ، شاركت المرأة المسلمة مشاركة ايجابية فى احراز النصر بجهودها المضنية فى الجبهة الخلفية • ولقد أحرزت المرأة العربية حقوقها السياسية لأول مرة عندما أقبلت على مبايعة الرسول • « **يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم** »(٢٥٩) • ولقد رحب المسلمون بالنساء المؤمنات الهاربات من الاضطهاد والمهاجرات الى المدينة وأكرموا وفادتهن وضمنوا لهن حرية العقيدة • وما كانوا ليفكروا قط فى اعادتهن الى الكفرة من أزواجهن وأهلهن « يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن • الله أعلم بايمانهن فان علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن»(٢٦٠) ولقد كان الوضع الخاص لهؤلاء النساء المؤمنات المهاجرات وحاجتهن الى الزواج من جديد وضعا دقيقا بالغ الحساسية • فالى متى يبقى هؤلاء النسوة بلا زواج ؟ وهل يقبلن الزواج من رجال متزوجين بجانب زوجاتهم ؟ قد يبدو هذا السؤال عجيبا لدى غير المسلمين ممن يعيشون فى عصرنا هذا !؟ ولكن يجب علينا أن نكون واقعيين ونناقش هذا السؤال فى ضوء الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الوقت • وهل كان من المستطاع حل الموضوع حلا آخر فى مثل تلك الظروف ؟ لقد كان من حق الوثنيين

---

(٢٥٩) سورة الممتحنة ، الآية ١٢

(٢٦٠) سورة الممتحنة ، الآية ١٠

العرب قبل ذلك ، بل وفي ذلك الوقت أيضا ، ان يتزوجوا أكثر من امرأة واحدة · وكان هذا تقليدا أو أمرا مسموح به فى شبه الجزيرة العربية وفى الكثير من المناطق الأخرى ، كما هو ثابت من الحقائق التاريخية والانجيلية ، الى أن جاء الاسلام فحول هذا التقليد الى مجرد استثناء يمارس فى أضيق حدود الضرورةالقصوى· ولقد كان الوضع الخاص للنساء المؤمنات المهاجرات سببا جديا لمثل هذه الضرورة · الا أن ثمة سبب آخر كان أشد خطورة ، ألا وهو كثرة الخسائر فى الأرواح خلال المعارك المتعاقبة التى خاضها المسلمون بعد الهجرة ، ومن ثم اطراد التزايد فى عدد الأيامى والأيتام · فمن الذى يرعى ويحنو ، ولا نقول ينفق فحسب ، على هؤلاء الأرامل والأيتام ؟ ولماذا لا يوزع حمل رعايتهم والانفاق عليهم على الرجال متزوجين كانوا أم غير متزوجين ؟ ولو وجد يومئذ نظام مبسط للضمان الاجتماعى يكفل لهؤلاء ما يمسك أودهم ، فهل كان فى استطاعة مثل هذا النظام أن يوفر لهم ما يحتاجون اليه من رعاية وحنان ؟ يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن الآيات القرآنية التشريعية المتعلقة بالنساء وبالزواج قد نزل أغلبها فى تلك الفترة الحرجة التى سادتها المعارك المتعاقبة واستشهد خلالها الكثيرون من المسلمين · وطبقا لما أحلته هذه الآيات قام الرجال المسلمون القادرون بضم النساء الأرامل الى كنفهم كزوجات ثانيات أو ثالثات أو رابعات · **وضرب الرسول المثل لأمته فتزوج ببعض الأرامل من بينهن حفصة ابنة عمر بن الخطاب التى استشهد زوجها فى موقعة بدر** · وكانت هذه أول مرة يتزوج فيها محمد بأكثر من امرأة بعد وفاة زوجته خديجة التى ظلت زوجته الوحيدة طوال خمس وعشرين سنة ! الأمر الذى يدل بوضوح على ان **اقبال محمد على ممارسة تعدد الزوجات لم يكن لغرض المتعة الجنسية ، بل كان مشاركة فى توزيع أعباء كفالة الأرامل واليتامى على القادرين من**

المسلمين . ويكفى أن ننوه بأن محمدا قد مارس هذا التعدد لأول مرة وهو فى سن الرابعـــة والخمسين ، أى فى سن تنفى كلية أية رغبة من جانبه فى متعة الجنس . وهذا ما أكده السير وليام موير فى كتابه عن حياة محمد»(٢٦١) بقوله « لم يحدث أن مارس الرسول تجربة تعدد الزوجات الا بعد بلوغه الرابعة والخمســـــين ـ وانه لتناقض واضح ، ما أبعده عن النقد الموضوعى العادل ، أن يدور فى خلد انسان أن يرنو الى الجنس فى مثل هذا السن المتقدم رجــل عاش فى شبابه حياة فاضلة ، وتزوج فى سن الخامسة والعشرين أرملة فى الأربعين من عمرها ظل يخلص لها طوال ربع قرن كزوجته الوحيدة » .

وجدير بالذكر أن الآيات القرآنية التى عالجت موضوع تعدد الزوجات لم تسمح بهذا التعدد الا كاستثناء يلجأ اليه الرجال فى حدود ما تقضى به الضرورة ، فيسمح لهم بزوجتين أو بثلاث أو أربع زوجات ، بشرط أن يكونوا قادرين على التسوية فى معاملتهن ، أى العدل بينهن دون تفضيل لاحداهن على الأخرى . وهذا شرط لا يمكن استيفاءه فى أغلب الحالات . ولئن بدا ممكنا من الناحيـــة المادية الا أنه جد عسير ان لم يكن مستحيلا من الناحية النفسية . « **وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملـــكت ايمـــانكم ذلك أدنى الا تعولوا** »(٢٦٢) ولقــد أباح الاسلام زواج المسلمين من النساء المحصنات من أهل الكتاب « اليوم أحل لــكم الطيبـــات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنـات والمحصنات من الذين أوتوا الـكتاب من

---

(٢٦١) Sir William Muir : The life of Mohammed

(٢٦٢) سورة النساء ، الآية ٣

قبلكم اذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ، ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين»(٢٦٣) وهذا يعنى أن للمسلم أن يتخذ من المرأة الكتابية زوجة ولا يتخذها خليلة ، وهذا أمر يدل على رحابة الأفق بالاضافة الى الحرص على تجنب أسباب الفساد ٠

ليس الزواج عند المسلمين بنوع من المتعة ولكنه نظام اجتماعى يهيىء للمجتمع مقومات العفة والفضيلة باعتبار أن الأسرة هى نواة المجتمع الفاضل السليم ٠ « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون»(٢٦٤) ولقد نوه الرسول بقدسية الزواج ومكانته البارزة بالنسبة للدين وللمجتمع فقال « الزواج نصف الدين »وقال أيضا « **تزوجوا ولا تطلقوا فان الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات** » وهذا الحديث الأخير لايدل على جدية وقداسة الحياة الزوجية فحسب ، بل ويضع الطلاق أيضا فى وضعه الصحيح ٠ انالاسلام اذ يبيح الطلاق انما يبيحه كضرورة غير مرغوب فيها ، وليس كحق مطلق وقابل لاساءة الاستعمال ! فهو لا يلجأ اليه الا اذا استحال على الزوجين أن يعيشا معا بعد استنفاد كل وسائل التوفيق والتحكيم ، أى عندما يصبح انفصالهما خيرا لهما من بقائهما معا فى جحيم ٠ « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » (٢٦٥) وواضح أن الطلاق لا يلجأ اليه الا كحل أخير ٠ وهذا الحل ليس بالمرغوب فيه دائما فهو بغيض عند الله

---

(٢٦٣) سورة المائدة ، الآية ٥ ٠

(٢٦٤) سورة الروم ، الآية ٢١

(٢٦٥) سورة النساء ، الآية ٣٥

وعند النفس. كما قال الرسول: **«ان أبغض الحلال عند الله الطلاق»**. واذا ما أصبح الطلاق أمرا لابد منه يجب أن يتم بطريقة طيبة كريمة دون امتهان للمرأة أو بخس لحقوقها . « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا ان يخافا الا يقيما حدود الله فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون»(٢٦٦) « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم »(٢٦٧) وما كان نطاق هذا الكتاب ليتسع للاستطراد فى تفاصيل اجراءات الطلاق وحقوق المرأة المطلقة . ولكننا نود أن نؤكد فى بساطة أن الانسانية قد تعلمت من خبرتها الطويلة عبر القرون أن الطلاق ضرورة حتمية فى حالات معينة . ولهذا فقد أصبح الطلاق مسموحا به فى جميع الدول ، بما فيها تلك التى لاتسمح عقيدتها الدينية به . ولقد أثبت الاسلام واقعيته فى هذا المجال .

تحرير الرقيق :

ظل الرق نظاما قائما ومسلما به كجزء لا يتجزأ من النظام الاقتصادى ، لعدة قرون فى سائر أنحاء العالم . وحتى مع تقدم حضارة الانسانية ظل الرق أمرا عاديا عند الاغريق والرومان والدول الكبرى الأخرى فى العصورة القديمة . واعترفت

---

(٢٦٦) سورة البقرة ، الآية ٢٢٩

(٢٦٧) سورة البقرة ، الآية ٢٣١

المسيحية واليهودية بالرق مطالبة بحسن معاملة الرقيق . ولقد توسعت تجارة الرقيق بصورة مروعة عقب فترة الكشوف البحرية والمغامرات الأوربية وما أعقبها من سباق استعماري مثير ، وبلغت هذه التجارة قمتها في الفترة ما بين الكشوف البحرية الكبرى في القرن الخامس عشر وقيام الثورة الصناعية ، ونمو الرأسمالية الحديثة في القرن التاسع عشر . وما كان ليتم تحريم هذه التجارة البشعة الا بعد أن أصبح استخدام الآلات أعم وأجزى في الزمن الطويل من استخدام الرقيق حيث أصبح العمال الأجراء الذين يلاحظون الآلات أقل كلفة ومسئولية من الأرقاء . ولقد واجه الاسلام مشكلة الرق قبل ذلك بمئات السنين فنظر اليه في الوقت الذى كان فيه حقيقة اقتصادية قائمة ، كنظام غير انساني واغلق كل منافذ الرق فيما عدا الأسرى في الحرب ، وأوصى بتحرير الأرقاء ليس على أساس اختيارى ، كنوع من الاحسان أو الصدقة ، بل وعلى أساس الزامى ككفارة لبعض الذنوب أو كاعفاء من بعض العبادات ، كما هو الحال في التكفير عن القتل الخطأ . وحتى في الوقت الذى كان الرق خلاله مسموحا به في الدول الاسلامية ، كان هذا النظام يكاد ينحصر تماما في الخدمة المنزلية ولا يمتد الى الأغراض الاقتصادية على نطاق كبير (٢٦٨) وكان مصحوبا بحسن المعاملة حتى لقد كان الأرقاء يتساوون مع الأحرار في الكثير من الحقوق . فقد كانوا يتمتعون بحقوقهم السياسية . كما كان يشجع الزواج من الاماء . **((وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم)) (٢٦٩) .**

---

(٢٦٧) هذا ما نوه به انجرام في كتابه تاريخ الرق .

(٢٦٨) هذا ما نوه به انجرام فى كتابه تاريخ الرق

(٢٦٩) سورة النور ، الآية ٣٢.

العبادات والفروض الاسلامية وضرورات الحياة اليومية

ليست الفروض الاسلامية وهى الصلاة والصوم والحج والزكاة بالطقوس الشكلية . كما أنها ليست بالعبادات الروحية البحتة . فالمواظبة على تأديتها بانتظام تعود على الانسان بفوائد مادية تسد الكثير من ضرورات حياتنا اليومية . وما كان الله ليفرضها على الناس لمنفعة له جل وعلا ، وانما فرضها عليهم لمصلحتهم قبل أى شيء آخر . ان الصلاة مثلا فريضة قضت بها جميع الأديان . ومهما اختلفت طرق او اساليب تأديتها فان أغراضها واحدة ، الا وهى تذكير الانسان بالله ومعاونته على تهيئة نفسه لاستقبال هدايته . « **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين**» (٢٧٠) كما تعمل الصلاة على وقاية الانسان من الفحشاء والمنكر « **اتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون**»(٢٧١) ولقد ثبت من أحدث تجارب ودراسات علم النفس أن الصلوات اليومية الخمس هى افضل فترات راحة تتخلل حياة الانسان الصاخبة فى عالمنا المادى . ذلك ان الطريقة المثلى للراحة واستجماع القوى خلال أوقات العمل ، هى التى تتضمن الاغتسال والرياضة الخفيفة والتحول الذهنى . وهذا هو ما تتضمنه الصلاة عند المسلمين(٢٧٢) حيث يتضمن الوضوء غسل الرأس والوجه والأيدى والقدمين قبل الصلاة كما تعد عمليات

---

(٢٧٠) سورة هود ، الآية ١١٤

(٢٧١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

(٢٧٢) يرجع الى آراء علم النفس الحديث بهذا الشان فى كتابنا « نحو الرشد الاقتصادى » ص ٧٦ ــ ٧٨ .

الركوع والسجود عدة مرات نوعا من الرياضة الخفيفة وأخيرا فان أفضل وسيلة للتحول الذهنى هى أن يرفع الانسان نفسه من الجو المادى الى الجو الروحى فى لحظات السمو الروحى أثناء الصلاة وتكون صلاة الجماعة أكثر فاعلية بالنسبة لهذا التحول والسمو . ولا يفوتنا أن ننوه بأهمية صلاة الجمعة كاجتماع عام للتشاور فى شئون الجماعة ، وهذا ، ما سنعود الى بحثه فى الفصل الثامن الخاص بالمفاهيم الديمقراطية للاسلام . كما ثبت أيضا ما للصيام من فوائد صحية فتشغيل الجهاز الهضمى بنصف طاقته شهرا فى السنة يكفل راحة وصيانة هذا الجهاز كما هو الحال فى ترميم الآلات ويدرب الصوم الانسان على مقاومة الاغراء ويساعده على العيش باعتدال وعلى تكوين عادات الصبر والاحتمال الطيبة . أما فريضة الحج فهى امتداد لما إقضت به عقيدة ابراهيم . وهى ليست مجرد عبادة ولكنها تتيح تشاور المسلمين فى أمورهم فى شبه مؤتمر سنوى كما سنوضح فى الفصل الثامن . وأخيرا تعد الزكاة نظاما مبسطا للضمان الاجتماعى . فهى بمثابة القسط الذى يساهم به القادرون فى صندوق مشترك للمساعدات العامة ، يقوم أساسا على التزام المجموع بكفالة الفرد ويحمل القادرين أعباء المعوزين وغير القادرين فى مجتمع مترابط متكامل بتقاسم الثروات ويوزعها توزيعا عادلا واضعا فى اعتباره دائما قول الرسول ليس منا من نام وهو شبعان وجاره جائع . ولقد حدث بعد وفاة الرسول أن أرادت بعض القبائل التى انضمت أخيرا الى الاسلام أن تبطل الزكاة كفريضة ، ولكن أبا بكر حسم الأمر ممشقا الحسام لتوكيد هذه الفريضة وتثبيتها كجزء لا يتجزأ من العقيدة الاسلامية لا يمكن التراخى فى تطبيقه أو المساومة عليه كمبدأ أساسى .

الوازع الداخلى :

لقــد تناولنا فيما سبق باختصار المقومات الخلقية للمجتمع الاسلامى ، واوضحنا فى مناقشتنا لهذه المقومات أنهـا واقعية وعلمية الأساس والطابع وهى تعد ولاشك كأنماط خلقية أفضل مجرى خلقى يمكن أن يشقه التصرف الانســانى لصــالح كل من الفرد والجماعة . والعظيم فى هــذه الانماط أو القيم الخلقيــة انهــا ليست مجرد مادة للوعظ لا يمكنهــا الاحتفــاظ بالتوافق الواجب بينهــا وبين الظروف الدائبــة التغير . وانهــا تكون فى مجموعها ما نصطلح على تسميته بالضمير أو الجانب الطيب فى أنفسنا . والأمر الذى يدل على أن الضمير ليس بالشىء الخرافى. أنه الوازع الداخلى وهاتف الخير فى أعمــاق نفوســنا ، الذى يروض غرائزنا ويحد من نزواتنا ويغــالب جانب الشر الذى لا يمكننــا أن نبرىء منه أية نفس بشرية **((وما أبرىء نفسى ان النفس لامارة بالسوء الا مارحم ربى ان ربى غفور رحيم))** (٢٧٣) .

ان الوازع الداخلى أو صوت الضمير فى أعماق نفوسنا هو الذى يذكرنا بأن الله معنا مهما فعلنا وأينما ذهبنا. واننا لانستطيع أن نخفى عن الله شيئا ، أو نجد سبيلا للافلات منه ! وحتى وقت النوم ، فان صوت الله فى أنفسنا لا ينام . انه يذكرنا دائما بوجود الله ويشعرنا دائما بقربه .. بانه أقرب الينا من حبل الوريد . **((ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفســه ، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد))** (٢٧٤) انه معنا فى كل وقت وهو **((يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور))** (٢٧٥) ونحن ولا شــك نخـدع

---

(٢٧٣) سورة يوسف ، الآية ٥٣

(٢٧٤) سورة ق ، الآية ١٦

(٢٧٥) سورة غافر ، الآية ١٩

أنفسنا عندما نتناسى وجود الله أو نتغافل عنه . أننا فى هــذه الحالة ننسى انفسنا ونسد فى وجهنـا كل طريق للخــلاص . ((**ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أولئك هم الفاسقون**))(٢٧٦) وهكذا نرى أن الايمان بالله هو بكل بساطة السـبيل لتنمية هــذا الوازع الداخلى أو هاتف الخير الذى يذكرنا بالله ويشـعرنا دائما بوجوده ويؤهلنا لهدايته .

قد يقال ما الحاجة منا فى هــذا العصر الى مثل هذا الوازع الداخلى أو الهاتف الخرافى ؟ لقد كان هذا الهاتف بديلا للقانون فى المجتمعات المختلفة فى العصور الغابرة . أما اليوم فلا حاجة لنا به فى مجتمعات منظمة ومتقــدمة تعرف يقينــا كيف تحمى نفسها ضد الشر بواسطة السلطة وبقوة القانون ! ان مثل هــذه الخواطر والأفكار لا يمكن الا أن تكون سلبية ! وهى تفتقر تماما الى الواقعية والحــكمة . ذلك أن الناس هم الذين يتــولون صـياغة القوانين . وفى استطاعتهم دائما أن يعدلوا هذه القوانين أو يغيروا أحكامها او ينسخوها متى وجدوا مصلحتهم فى ذلك . وما أكثر الحالات التى يتعذر فيها القول ان الحكومات والبرلمانات ومحاكم القضاء تمثل ارادة الشعب الحقيقية . بل هى تمثــل المصــالح الخاصة لقلة متميزة فى حالات كثيرة ! وحتى اذا فرضنا انالقوانين جميعها مثالية وكاملة ، هل يمكن الاطمئنان حقيقة الى مراعاتها واحترامها أو تطبيق أحكامها بأمانة ؟ ! انهــا عرضــة لأن تطبق بطريقة تتعارض مع أغراضها الحقيقيــة ! وانه ليوجد دائما من مخــالفى القوانين أكثر ما يوجــد من رجال الشرطة ! حتى رجال الشرطة يمكن أن يكونوا فى أى وقت أول من يخالفون القــانون ! لنأخذ فترة تحريم الخمر فى الولايات المتحدة الأمريكية كمثــل

---

(٢٧٦) « الحشر ، الآية ١٩

محـدد ! هل نجح القـانون حقـا فى تحريم تنـاول المشروبات الروحية ؟ لقد ازداد الأمر سـوءا على عكس ما كان متوقعا . وكانت جرائم التهريب وما صحبهـا من ازدياد سـطوة رجال العصـابات هى النتيجة الحتمية . ولا عجب فالانسـان متمرد بطبيعته وهو يعرف عادة كيف يخرق القانون أو يفلت منه . والا لمـا فشلت القوانين التى فرضت بهـا بعض الحـكومات عقوبة الاعدام على المدخنين ومتعاطى المخدرات ! ان هذه القوانين رغم تشديدها للعقوبة الى أقصى حد يمكن تصوره لم تنجح قط فى تحقيق أغراضـها . مما يوضـح أن الأكثر واقعيـة هو أن نقوى مقاومة الانسـان للشر بتنمية الوازع الداخلى وتقوية هاتف الخير فى نفسه . ان الوازع الداخلى لا يمكن أن يتـكون الا عن طريق الايمان وعن طريق الايمان وحده ! ومن هنا كانت القيم الخلقية التى شقت بها الأديان أفضـل مجـرى للتصرف الانسـانى وأكثر ايجـابية وفاعلية من قوانين ولوائح البشر ! **وما كانت القـوانين واللوائح لتحمى مجتمعات بلا ايمان من الفساد والكوارث ، ولابد لهذه المجتمعات أن تعود الى الايمان اذا أرادت حقا أن تحيا حياة مستقرة هانئة !**

الفصل السابع

المبادئ والنظم الاقتصادية للإسلام

« أليس الله بكاف عبده »
قرآن كريم

لا تتضمن المراجع العلمية الخاصة بتاريخ الفكر الاقتصادى الا القدر اليسير ، ان لم تتضمن شيئا قط ، عن المبادىء والنظريات الاقتصادية للاسلام . ومرجع ذلك الى أن الاقتصاد السياسى علم حديث ظهرت محاولاته الأولى فى أوروبا فى الفترة الهامة التى أعقبت قيام الثورة الصناعية ونمو الرأسمالية الحديثة ، ولقد كان الاقتصاد السياسى فى نشأته الأولى علمـــا ماديا مجردا ، أغرق فى المـاديات وقطع كل صلة بينه وبين مبادىء الأخـلاق والاغراض الاجتماعية ، بل والقيم الانسانية أيضا . فالانسان سمى فى نظر الاقتصاديين الأوائل بالرجل الاقتصادى ، وكانوا يصورونه بهذا الاصطلاح كائنا ماديا لا يسعى الا لخدمة مصالحه وأغراضه المـادية فحسب دون أقل اعتبار لمصـــالح الآخرين ! وذهب هؤلاء الاقتصاديون القدامى فى ماديتهم الى حد القول أن الحياة الاقتصادية انما تحكمها قوانين اقتصادية طبيعية لا قدرة للانسان على تغييرها وليس للحكومات أن تتدخل فى ســـيرها الحتمى . وهكذا كانت الحكومات تطالب بأن تنأى جانبا وتتغافل كلية عن أخطاء ومظالم الرأسمالية الحديثة المنطلقة بلا حدود ولا ضوابط ، فى وقت كان الفكر الاقتصادى طواله مسخرا لخدمة أغراض الرأسمالية وتبرير مظالمها ونتائجها السلبية ، بما يبتدعه من حجج ومعاذير ، وان صبت لغرض التمويه فى قالب ما أسموه بالنظريات العلمية ! من هنا لم يكن الاقتصاديون ليعنوا أقل عناية ببحث الأفكار الاقتصادية التى تضمنتها تعاليم مختـلف الأديان لأنها كانت فى نظرهم مجرد وعظ أو توجيهـات خلقية ! ولعلهم كانوا يرون من العبث أن يضيعوا الوقت فى بحث مبادىء جـد مبهمة عن الأجور الطيبة أو العادلة ، لأن كلا من الاسعار والاجور يحكمه القانون الطبيعى للعــرض والطلب . وحتى الاشتراكيين الذين تصدوا لمعارضة نظريات الأحرار وتفنيــدها ، لم يكونوا

ليعنوا أيضا بالفكر الاقتصادى للأديان ، وقد كانوا ينظرون الى الدين كشىء رجعى او خرافى ، او على الأقل غير علمى !

ان المسيحية كما نعلم هى الدين السائد فى الغرب والاقتصاديون الغربيون يجهلون بالطبع كل شىء عن الاسلام ، ومن ثم لم يكونوا يهتدوا الى مبادئه. ونظرياته الاقتصادية التى لا تمتد جذورها الى المسيحية أو أية عقيدة أخرى ٠ فلقد أرسى الاسلام ، كما وضحنا من قبل قواعد المجتمع الاسلامى والدولة الاسلامية ٠ ولم يكن ليقتصر على الجانب الروحى فحسب ، بل أولى رعايته أيضا لرفاهية الناس المادية ! وأقام نظاما اقتصاديا رشيدا يستند الى مبادىء ونظريات علمية سوف نعالج تفاصيلها فى هذا الفصل ٠ **ويمكن تلخيصها الآن فيما يلى :**

أولا : نظرية دورة الانفاق الخيرة أو المربحة ، وهى تطبق فى أوقات الرخاء والكساد معا ٠

ثانيا : الحد من أرباح الوساطة وتحريم الربا ٠

ثالثا : وجوب التزام الملكية الخاصة بوظيفتها الاجتماعية الأمر الذى يجعل الملكية الخاصة مجرد أمانة وليست حقا مقدسا ٠

رابعا : النظرية العلمية الأولى للاشتراكية ، وهى نظرية محكمة الصياغة وتستهدف مجتمعا لا طبقيا يتمتع أفراده بتكافؤ فرص العمل والاشباع والرفاهية ٠

دورة الانفاق الخيرة :

لقد دعى المسلمون فى آيات كثيرة منوعة من القرآن الكريم الى الانفاق لأن الانفاق فى صالحهم الخاص كما هو فى صالح الجماعة ٠ وليست هذه الآيات مكررة ولكنها تعالج الانفاق من جوانب مختلفة وتبرز ما ينجم عنه من نتائج طيبة ومربحة ٠ ولو وضعنا هذه

الجوانب فى اطار واحد لكونت فى مجموعها نظرية علمية للانفاق، وقد اخترنا لهذه النظرية اسم نظرية « **دورة الانفاق الخيرة** » **ويمكننا تلخيص مبادئها العامة فيما يلى :**

١ ـ **على الانســان أن يكون عادة الانفاق الطيبــة كالتزام خلقى** قبــل الجماعة وكوسيلة لشكره وعرفانه لله سبحانه وتعــالى الذى رزقه وشمله برعايته ونعمه ٠ ولقد دعت جميع الأديان الناس الى الانفاق « وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين»(٢٧٧) « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى ســبيل الله فمنكم من يبخــل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم»(٢٧٨) ٠

٢ ـ **ما من مال الا وهو مال الله خالق كل شيء** ٠ وما الانسان الا وكيل على ما لديه من مال ٠ ولهذا يجب عليه أن ينفق من الأموال التى استخلفه الله عليها « آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير»(٢٧٩) ٠

٣ ـ **اذا كان المال جميعه مال الله ، كان للمعوزين وللجماعة عموما حق فى هذا المال** ، ويجب اقتضــاء هذا الحق من الأغنيــاء والموسرين ٠ ٠ «وفى أموالهم حق للسائل والمحروم» (٢٨٠) وتأكد هذا المبــدأ بآية مماثلة « والذين فى أموالهم حق معــلوم ٠ للسائل والمحروم»(٢٨١) ٠

---

(٢٧٧) سورة البقرة ، الآية ١٩٥
(٢٧٨) سورة محمد ، الآية ٣٨
(٢٧٩) سورة الحديد ، الآية ٧
(٢٨٠) سورة الذاريات ، الآية ١٩ ،
(٢٨١) سورة المعارج ، الآيتان ٢٤ ، ٢٥

والانفاق بهذا المفهوم انما يعمل كأداة لاعادة توزيع الدخل القومى على النحو الذى يحقق تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية(٢٨٢) .

٤ ـ **على الانسان أن ينفق ليس في أوقات السراء أو الرخاء فحسب ، بل وفي أوقات الضراء أو الكساد أيضا .**
« الذين ينفقون فى السراء والضراء (٢٨٣) ولقد أبرزت النظريات الاقتصادية الحديثة أهمية الانفاق فى الضراء . فنظرية عجز الاستهلاك في تفسير الأزمات مثلا ترجع حدوث الأزمة الاقتصادية الى قلة دخول الانفاق مما يؤدى الى نقص الطلب وعجز الإستهلاك بالتالى . وتدعو هذه النظرية الى زيادة الانفاق فى أوقات الكساد بالتوسع في المشروعات العامة لكى يزداد حجم الدخول وتزداد القوة الشرائية فينتعش الاستهلاك ، الأمر الذى يعجل بالعودة الى الرخاء.

٥ ـ **على الانسان أن ينفق كل مايزيد عن حاجته ولا يكتنز**
« ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٢٨٤) .

٦ ـ **يجب أن يحرص الانسان عندما ينفق نقدا أو نوعا على أن يكون ماينفقه من خير ماعنده** « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فان الله عليم » (٢٨٥) . ولا يجوز أن يبحث عن الأسوأ فينفقه أو بعبارة أصح

---

(٢٨٢) هذا ما عبر عنه شوقى تعبيرا موفقا بقوله :
يريد الخالق الرزق اشتراكا وان يك خص أقواما وحابى
(٢٨٣) سورة آل عمران ، الاية ١٣٤
(٢٨٤) سورة البقرة ، الآية ٢١٩
(٢٨٥) سورة ال عمران ، الآية ٩٢

يتخلص منه « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه واعلموا ان الله غنى حميد » (٢٨٦) .

٧ — **كل من ينفق سوف يجنى سريعا ثمرة ما أنفق** . ومن شأن هذا المبدأ أن يولد دورة الانفاق الخيرة اذا ما طبقته الغالبية على نطاق كبير « وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون) (٢٨٧) بل ان الانسان يجنى عادة اكثر مما أنفق « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » (٢٨٨) . وفى بعض آيات القرآن الكريم نرى الانفاق ينعت بالقرض الحسن الى الله سبحانه وتعالى ، وهذا القرض يرده الله الى الانسان مضاعفا بل أضعافا « ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم » (٢٨٩) . ومما هو جدير بالذكر أن هذا المبدأ الاقتصادى الذى استحدثه القرآن قد رددته فيما بعد التطورات الحديثة فى الفكر الأقتصادى . ونخص بالذكر نظرية رفع الأجور وخفض الأسعار التى تعد حجر الزاوية لفلسفة الترشيد الاجتماعية وتنظر هذه النظرية الى الأجور كالمصدر الاساسى للقوة الشرائية . ولهذا تدعو الى العمل على رفعها توسيعا

---

(٢٨٦) سورة البقرة ، الآية ٢٦٧

(٢٨٧) سورة البقرة ، الآية ٢٧٢

(٢٨٨) سورة البقرة ، الآية ٢٦١

(٢٨٩) سورة الحديد ، الآية ١٨ ، ويرجع أيضا الى الآية ١٧ من سورة التغابن والآية ٢٠ من سورة المزمل .

للأسواق . كما أن خفض الأسعار يؤدى ايضـــا الى زيادة المبيعات وهذا ما أكدته النظرية الاسلامية « دورة الانفاق الخيرة » قبل مولد الاقتصاد الســياسى ـ كعلم ـ بمئــات السنين .

الحد من أرباح الوساطة وتحريم الربا

انه الوسيط الذى يحصل دائما على نصيب الأسد فى المجتمع الرأسمالى وينظر أغلب الاقتصاديين الى أرباح الوســطاء كأرباح فادحة وغير معقولة وهى تعد فى نظر الترشيد من أخطر مظاهــر الضياع الاقتصادى ذلك أنها تؤدى الى ارتفاع الأسعار ، ومن ثم الى هبوط مستوى الاشباع العــــام لحاجات الأفراد . والقرآن يقرر كمبدأ عام تحريم الاثراء على حساب الغير وبخس النـــاس أشياءهم وحقوقهم **« ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسـط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين »** (٢٩٠) ولقد حمل القرآن حملة عنيفة على المطففين وهم أخطر الوسطاء فى عصر نزوله لأنهم عندما يأخذون من الناس إنما يأخذون اكثر مما يستحقون . وعنـــدما يعطون النـــاس انما يعطونهم أقل مما يستحقون « ويل للمطففين . الذين اذا اكتـــالوا على النـــاس يستوفون . واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . الا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم » (٢٩١) وغنى عن البيان أن مدلول هذه الآية لا يقتصر نطاقه على عملية الكيل والميزان فحسب ، فهذا مثل رمزى ، بل يمتد الى أعمال الوساطة عموما ، ولقـــد حرم الاسلام الربا تحريما قاطعا كأسوأ وأقسى أنواع الوساطة « يمحق

---

(٢٩٠) سورة هود الآية ٨٥

(٢٩١) سورة المطففين ، الآيات ١ ـ ٥

الله الربا ويربى الصدقات والله لايحب كل كفار اثيم » (٢٩٢) .
ولقد ساء البعض تحريم الربا تحريما قاطعا على هذا النحو فكانوا يجادلون كيف يحلل الله التجارة ويحرم الربا وهو لايختلف عنها فى كثير . وقد رد القرآن ردا حاسما «الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢٩٣) . ولقد نزلت الآية الخاصة بتحريم الربا فى عصر لم يكن قد ظهر فيه نظام البنوك بوضعه المعقد الحديث . وهذا مايحمل البعض على التساؤل ما اذا كان تحريم الربا يسرى أو لا يسرى على أسعار الفائدة وأسعار الخصم التى تقتضيها البنوك ؟ ان ائتمان البنوك يختلف اختلافا بينا عن القروض الودية أو الأخوية أى القروض الحسنة المفروض أن يساعد الناس بها بعضهم بعضا بدون فائدة . ويجب أن يأخذ فى الاعتبار عند التصدى للاجابة على مثل هذا التساؤل أن البنوك تحتفظ بحسابات طردية وتتعرض لأخطار الديون المعدومة ، ومن العدل أن نسمح لها بسعر فائدة أو بسعر خصم فى حدود مايكفل تغطية نفقاتها الادارية وتأمينها ضد ضياع بعض أموالها نتيجة مالا تستوفيه من ديون معدومة . وعلينا أن نأخذ فى الاعتبار أيضا أن أسعار الفائدة والخصم تحدد عادة بواسطة الحكومة فى كل الدول نظرا لما لها من أثر عظيم على الاقتصاد القومى عموما . هذا فضلا عن أن الاتجاه العام فى الوقت الحاضر هو اخراج البنوك من مجال الكسب الخاص ، ولهذا رأينا البنوك تؤمم فى أغلب الدول بما فى ذلك دول غير اشتراكية كثيرة . ولقد دعا المفكر

---

(٢٩٢) سورة البقرة ، الآية ٢٧٦
(٢٩٣) سورة البقرة ، الآية ٢٧٥

الاشتراكى الفرنسى **((برودون))** فى منتصف القرن التاسع عشر الى نظام جديد للاستبدال يقوم على فكرة القرض بلا فائدة ، وهو ما أسماه ببنك الاستبدال الشعبى ، الا أن هذا المشروع اعتبر خياليا وادخله الاشتراكيون الماديون فى اطار الطوبوية ، الا أنه يبدو مقبولا فى نظر الاقتصاديين المسلمين وهو جدير بأن يحظى باهتمام الاشتراكيين غير الماديين والمرتبطين بتراثهم الروحى فى العصر الحديث .

الوظيفة الاجتماعية للملكية الخاصة :

ان الله سبحانه وتعالى هو المالك المطلق لكل شىء ، لأنه هو « خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل » (٢٩٤) وهو **((الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض))** (٢٩٥) ولسوف تؤول جميع الملكيات اليه عز وجل « انا نحن نرث الأرض ومن عليها والينا يرجعون » (٢٩٦) انه الغنى والمغنى ونحن جميعا فقراء اليه ونبتغى دائما فضله **((يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد ، ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله** بعزيز»(٢٩٧) وما البشر الا خلائف الأرض ووكلاء عن الله فى كل ما يملكون . « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم»(٢٩٨) ولقد جعل الله فى أموالهم حقا معلوما للمعوزين والمحرومين وللجماعة على العموم . مما تقدم يتضح لنا أن الملكية الخاصة ليست من وجهة نظر الاسلامية بالحق

---

(٢٩٤) سورة الزمر ، الآية ٦٢
(٢٩٥) سورة ابراهيم ، الآية ٢
(٢٩٦) سورة مريم ، الآية ٤٠
(٢٩٧) سورة فاطر ، الآيات ١٥ - ١٧.
(٢٩٨) سورة الانعام ، الآية ١٦٥

المطلق أو المقدس ، ولكنها وظيفة اجتماعية قبل أن تكون أى شيء آخر • ولا يجوز أن تنفصل الملكية عن العمل لأن العمل فريضة وواجب يمليه الشرف • فاذا ما تحللت الملكية الخاصة من وظيفتها الاجتماعية وتحولت الى أداة للترفع عن العمل أو استغلال عمل الغير يجب مصادرتها ، أو على الأقل تحويلها الى ملكية عامة • وهكذا تعد الملكية العامة فى نظر الاسلام وسيلة وليست غاية فى حد ذاتها ! وهذه الوسيلة تلجأ اليها الدولة وقتما تقتضى الضرورة ذلك، أى فى حدود مقتضيات الصالح العام • الا أنه من الخطأ أن ننظر الى تحويل الملكية الخاصة الى ملكية عامة كنوع من العقوبة يحل بالمالك المنحرف أو المتلاعب ، وانما هو تطبيق لمبدأ عام ووضع للأمور فى نصابها ورد للحقوق الى ذويها • وهو يتصل بتطور الظروف الاقتصادية والفنية أكثر مما يتصل بتصرفات الأفراد • فالدولة اذ تؤمم البنوك ومؤسسات التأمين والصناعات الثقيلة والانتاجية مثلا لا تفعل ذلك لتوقيع عقوبة التأميم على أصحاب رؤوس الأموال فى هذه القطاعات من النشاط الاقتصادى ، وانما تفعله مراعاة لأهمية هذه القطاعات بالنسبة للصالح العام وما يستتبع هذا من وجوب تحويل ملكيتها من القطاع الخاص الى القطاع العام •

الاشتراكية الإسلامية

يزعم الماركسيون أنهم أول من أرسى قواعد الاشتراكية العلمية، وينظرون الى جميع من تقدمهم من الاشتراكيين كخياليين أو عاطفيين أو غير علميين ، قد لا تعوزهم النوايا الطيبة ولكن ليست لأفكارهم قيمة علمية أو ايجابية • كما يزعم الماركسيون أيضا أنهم أول من طفروا بالاشتراكيـة من حلم نبيل لبعض الفلاسفة طيبى القلب الى حركة شعبية عارمة تضرب بعنفها لبلوغ أهدافها • ومع احترامنا لمزاعم الماركسيين وافتراضنا لنواياهم الطيبة ويجب أقل محاولة

للاقلال من شأن دورهم المعترف به في ارساء قواعد الاشتراكية الحديثة، الا أننا نود أن نوجه اهتمامهم الى **حقيقة أسبقية الاسلام عليهم فى وضع أول نظرية للاشتراكية ، قبل ظهورهم بمئات السنين** ٠ وفى اعتقادى أنه من المبالغة لوم الماركسيين على تجاهلهم للاشتراكية الاسلامية لأن هذا التجاهل ليس بالمتعمد ، لأنهم وقد تأثروا أعظم التأثر بالفلسفات المادية فى عصرهم لم يكونوا ليفكروا قط فى تلمس أصولهم الفكرية فى تعاليم الدين ! هذا على الرغم من أن حركات الأديان لم تكن بالحركات الروحية البحتة ، كما أوضحنا فى الفصل الرابع بتحليلنا لكفاح الأنبياء ووضع مؤيديهم ومعارضيهم من الطرح الطبقى للجماعة ، بل استهدفت بجانب تدعيم المقومات الروحية والخلقية للمجتمع العمل على تحرير أفراده اقتصاديا واجتماعيا وتحسين ظروفهم المادية ورفع مستوى رفاهيتهم بالتالى ٠ ولم تكن حركات التحرر الدينى لتخلو من صراع طبقى ، وكان الصراع ينتهى دائما بانتصار جماهير الفقراء على الأغنياء والطغاة والمستكبرين والرجعيين وعموما على الأقلية المتميزة ٠ ولم تكن هذه الحقائق لتتضح للاشتراكيين أو الاقتصاديين الغربيين ، الذين نشأوا فى بيئة غربية مسيحية أو مادية ٠ ولم يكونوا ليدركوا شيئا يذكر عن ماهية الاشتراكية الاسلامية أو ليقفوا على الخطوط الرئيسية لأول نظرية علمية للاشتراكية كما تبدو فى بعض آيات القرآن الكريم الواردة فى عدة سور . الا أن بعض الكتاب المعاصرين الذين تعمقوا فى دراسة الاسلام ، أدركوا أخيرا أهمية عنصر التحرر الاجتماعى فى العقيدة الاسلامية ٠ وقد خصصنا منهم بالذكر فى الفصل الرابع من هذا الكتاب الأستاذ « **ولفرد كانتويل سميث** » الذى نوه فى كتابه «**الاسلام فى التاريخ المعاصر**»(٢٩٩) بأسبقية الاشتراكية الاسلامية على الماركسية ٠ ولقد اعتبر النظام الاشتراكى الاسلامى بحق أجدى

Wilfred Cantwell smith : Islam in modern history (٢٩٩)

وأثبت محاولة حدثت لتحقيق العدالة بين الناس قبل ظهور الماركسية **باعتبارها أكبر محاولتين رئيسيتين لتحقيق مثل أعلى اجتماعي** »(٣٠٠)

وتتخلص النظرية الاشتراكية الاسلامية فى ضمان نصيب لائق وكريم من الحياة لكل فرد ، أو بلغة الاقتصاد الحديث ضمان حد أدنى مناسب من المعيشة على أساس الاشتراك فى التمتع أو تكافؤ الفرص فى الأشباع والرفاهية • ويتاح لكل فرد أن يكسب فوق هذا الحد بقدر اجتهاده فى عمله ، الأمر الذى يؤدى الى قيام درجات اقتصادية نتيجة لتفاوت الكسب تبعا لتفاوت القدرة والاستعداد ، ولكن مثل هذه الدرجات الاقتصادية لايجوز أن تترك تتفاقم وتتطور الى طبقات اجتماعية • ولهذا يفرض حدا أعلى من الدخل ليحول دون ذلك ، وليعمل كصمام أمن ضد تركز الدخول والثروات فى أيدى أفراد قلائل ، ومن ثم تحولهم سريعا الى طبقة مميزة ! ان هدف الاشتراكية الاسلامية هو باختصار اقامة مجتمع لا طبقى يصنف فيه الأفراد فى درجات اقتصادية تبعا لعملهم وقدراتهم ، وذلك فى مدى حدين أحدهما أدنى والآخر أعلى للمعيشة ، وكلما اقترب هذان الحدان كلما كان ذلك دليلا على توافر المساواة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية •

ويجب أن يكون الحد الأدنى للمعيشة كافيا لأن يحيا الفرد حياة كريمة لائقة **((أليس الله بكاف عبده))** (٣١٠) . وهذا يعنى أن يحصل كل فرد على نصيبه الحق الكامل ليس من خيرات الطبيعة فحسب ، بل ومن ثمار العلم والمدنية أيضا • فهذه الثمار تعد جزءا لا يتجزأ من التراث البشرى للمدنية ، وهى بذلك ملك للانسانية

---

(٣٠٠) ليفرد سميث فى كتابه الاسلام فى التاريخ المعاصر ، ص ٣٠ ويرجع أيضا الى ماسبق اقتباسه من هذا الكتاب فى الفصل الثالث

(٣٠١) سورة الزمر ، الآية ٣٦

جمعاء ولا يجوز أن يختص بها بعض الأفراد دون البعض الآخر . وطبقا لهذا المبدأ ــ مبدأ الاشتراك فى التمتع ــ يكون لكل فرد الحق فى سيارة وثلاجة كهربائية وتليفزيون وقتما تسمح الطاقة الانتاجية للجماعة بذلك .

ان العمل فى الاسلام فريضة . وهو حق تكفله الدولة لكل مواطن وواجب يمليه الشرف . وعلى كل فرد أن يعمل بقدر طاقته ويبذل قصارى جهده فى سبيل مصلحته ومصلحة الجماعة بصفة عامة **((قل يا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار))** (٣٠٢) ويجازى كل فرد بقدر عمله دون غبن أو استغلال ((ألا تزر وازرة وزر أخرى . وان ليس للانسان الا ما سعى . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى)) (٣٠٣) ولما كان كل فرد يجزى بقدر عمله ، ولما كانت قدرات واستعدادات الأفراد ليست بالتساوية ، لا مفر من وجود مستويات مختلفة من الدخل أو درجات اقتصادية . ومثل هذه الدرجات لا غنى عنها أيضا لتدرج مراتب المسئولية التى لايحسن بدونها سير الجماعة الانسانية .

ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون (٣٠٤) ((نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون)) (٣٠٥) وما من مجتمع انسانى يسير على مبدأ تقسيم العمل والتخصص ، ولا يمكن لأفراده الا أن يعتمدوا بعضهم على

---

(٣٠٢) سورة الانعام ، الآية ١٣٥
(٣٠٣) سورة النجم ، الآيات ٣٨ ــ ٤١
(٣٠٤) سورة الاحقاف ، الآية ١٩
(٣٠٥) سورة الزخرف ، الآية ٣٢

البعض الآخر ، ألا توجد فيه مثل هذه الدرجات المتصاعدة فى الدخل والمسئولية بحكم الضرورة حيث لا مفر من تفرغ البعض للاشراف على أعمال الآخرين وتنسيقها • ويوضع هؤلاء الذين يرتفعون الى المراتب أو الدرجات الأعلى موضع الاختيار ويمرون بتجربة مستمرة • فلا يجوز لهم أن يفيدوا من مراكزهم الأعلى ويخصوا أنفسهم بمزايا خاصة يتميزون بها على غيرهم • كما لا يجوز لهم أن يمتهنوا أو يستغلوا هؤلاء الذين يعملون فى المستويات الأدنى • « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم ان ربك سريع العقاب وأنه لغفور رحيم » (٣٠٦) ولن يحاسب هؤلاء بواسطة الله عز وجل فى الآخرة فحسب ، بل سوف يبلون الحساب فى الحياة الدنيا أيضا ، سواء عن طريق الضمانات القانونية والقضائية أم عن طريق الرقابة الديموقراطية لسواد الشعب العامل •

وواضح من مغزى وسياق الآيات السابقة أن التفاوت المسموح به فى مستويات الدخل والمسئولية انما يكون درجات اقتصادية متقاربة ولا يكون طبقات اجتماعية متنافرة ، كما يخطىء البعض فى فهم المقصود بهذه الآيات رغم الفرق الواضح بين معنى الدرجات ومعنى الطبقات من الناحية اللغوية البحتة . ذلك أن الطبقة تدل على فئة أكبر فى تنسيم المجتمع الانسانى الى فئات • والطبقة الواحدة يمكن تقسيمها بالتالى الى درجات • فالطبقة العاملة مثلا تنقسم الى درجات العمال فائقى المهارة والعمال المهرة ونصف المهرة وغير المهرة • وكل من هذه الدرجات تنقسم الى درجات ثانوية من حيث الكسب والمسئولية بل أن الفرد الواحد يتدرج خلال حياته فى درجات فيستهل حياته فى درجة أدنى ثم يرتقى تدريجيا الى الدرجات الأعلى •

---

(٣٠٦) سورة الانعام ، الاية ١٦٥

وهكذا يتضح بما لا يفسح مجالا لجدل أو لشك أن وجـــود الدرجات الاقتصادية لا يعني وجود طبقات مترفة متميزة وطبقات أخرى معسرة أو محرومة ! ٠

ولحماية المجتمع الانساني من النكسات واساءة اســـــتعمال السلطة والعودة الى نظام الطبقات بالتالى ، فرض الاسلام حدا أعلى للدخل ، مراعيا تركه مرنا وخاضعا لتقدير الحاكم فى ضوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتطورة . ولئن كان الاسلام لم يحدد قدر هذا الحد الأعلى لأنه حد نسبى بطبيعته الا أنه قرر المبادىء أو الأبعاد التي يجب أن تؤخذ دائما فى الاعتبار عند تحديده من وقت لآخـــر طبقا لما يتمشى مع الظروف السائدة ٠

هذه المبادىء أو الأبعاد يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ــ **لا يجوز أن تترك الأموال تتجمع فى أيدى قلة متميـــــزة** الى الحد الذى يمكنها من ممارسة السيطرة على الآخــــرين واستغلالهم ٠ « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٣٠٧) « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء أنه بعباده خبير بصير » (٣٠٨) ٠

٢ ــ **من شأن تجمع الأموال لدى قلة متميزة من الناس أن يؤدى الى الترف والتبذير والضياع وميوعه الحياة اللينة** ٠ ومثل هذه السلبيات أو الأمراض الاجتماعية لاتلبث أن تؤدى الى تدهور وانهيار المجتمع ٠ « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيهـا ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٣٠٩) ومن هنا يجب على الناس أن يعيشوا بحكمة واعتدال ٠ لأن الترف غير

---

(٣٠٧) سورة الحشر ، الآية ٧

(٣٠٨) سورة الشورى ، الآية ٢٧

(٣٠٩) سورة الاسراء ، الآية ١٦

المعقول والمبدد لثروات الشعوب لا يلبث أن ينتهى بكارثة الانهيار التام . « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملا » (٣١٠) والترف أو الاسراف لا بد وأن يبدد الجهد ويعوق الاصلاح ويشيع الفساد « ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » (٣١١) .

٣ — **الاكتناز** ، أو تجميع الأموال بواسطة البعض لمجرد التجميع والتكديس دون انفاقها حتى على مواد الترف ووجوه الانفاق الضائع ليست فى نظر الاسلام بالأقل ضررا ، لأنه يجنب قدرا محسوسا من الأموال عن التداول المثمر . فهو لا يقل اضرارا عن وقف ماء الرى عند أرض الانسان ومنعه من المرور الى أرض الغير . ولهذا استنكر القرآن الاكتناز وحمل بشدة على المكتنزين « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (٣١٢) .

٤ — **لا يجيز الاسلام تجميع الأموال فى أيدى بعض الأفراد على حساب الآخرين** ، أى عن طريق بخس الناس أشياءهم والاثراء على حساب الغير « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » (٣١٣) بل هو لا يرتاح الى هذا التجميع فى حد ذاته كمظهر من مظاهر سوء التوزيع . وما فرض الاسلام للحد الأعلى للدخل الا وسيلة لاعادة توزيع الدخل القومى بين الأفراد على النحو الذى يحقق العدالة . حيث يأخذ من هؤلاء الذين يحرزون أو يكسبون أكثر مما يجب ليعطى هؤلاء الذين يحوزون أو

(٣١٠) سورة الكهف ، الآية ٧
(٣١١) سورة الشعراء ، الآيتان ١٥١ ، ١٥٢
(٣١٢) سورة التوبة ، الآية ٣٤
(٣١٣) سورة هود ، الآية ٨٥

يكسبون أقل مما يجب . وما التوســـع فى نظم الضرائب المباشرة التصاعدية جنبا لجنب مع التوسع فى برامج الخدمات المجانية العامة الا تطبيقا مستحدثا لهذا المبدأ القويم ، الذى نجده واضحا كل الوضوح فى قول الرسول : « أن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم ، بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا الا بما يصنع أغنياؤهم » وفى قول على بن أبى طالب « أن الله سبحانه فرض فى أموال الأغنياء ، أقوات الفقراء فما جاع فقير الا بما متع به غنى ، والله سائلهم عن ذلك » وكان عمر بن الخطاب قد أكد نفس المعنى من قبل فى قوله البليغ «**كل ترف بازاءه حق مضيع** » .

تلك هى الخطوط الرئيسية للنظرية الاشتراكية الاسلامية . ولا شك أن هذه الخطوط أو المبادىء العامة تؤلف فى مجموعها نظرية علمية قابلة للتطبيق . ولقد طبقت فعلا والى حد كبير فى عهد المسلمين الأوائل . فالدولة الاسلامية فى عهد امام الاشتراكيين محمد وفى خلفيـــة العظيمين أبو بكر وعمر بن الخطاب كانت دولة اشتراكية حقة عاشت الاشتراكية كمذهب وكنظام داخل الاطار العام للاسلام. ومهما يكن من أمر الأوضاع القائمة فى بعض الدول الاســـلامية الرأسمالية المعاصرة ، فان هذه الأوضاع لا تعنى شيئا بالنسبة لوجود أو عدم وجود الاشتراكية الاسلامية كنظرية علمية قابلة للتطبيق . فما أكثر ما تتعــرض المذاهب والنظم للانحــــرافات والنكسات ، وما كان مثل هذا التعرض ليلغى أو ليبطل وجودها وقيمتها العلمية . وغنى عن البيان أن الجوانب السلبية أو المعتمة لبعض المجتمعات الاسلامية خلال القرنين أو الثلاثة قرون الماضية ، ليست الا نتيجة المؤثرات الخارجية والعوامل الدخيلة التى لا علاقة لها بالاسلام وليست منه فى شىء ! فالاستعمار والاقطاع والانسياق الأعمى وراء مظاهر المدنية الغربية وغير ذلك من العوامل الخارجية

قد أثرت تأثيرا سلبيا على الكثير من المجتمعات الاسلامية ، على نحو يحجب عن الباحث غير المدقق الكثير من الحقائق ، ان لم يشككه فى الكثير من القيم الاسلامية واليوم وقد تخلصت الدول الاســـــلاميه من أغلب هذه العوامل الدخيلة بتحررها من الاستعمار والقضاء على سيطرة الاقطاع فى الـكثير منها وتهيأت لها سبل النهوض والتقدم بلا عوائق ، نرى محاولات جدية موفقة فى كثير من هذه الدول لبعث الاشتراكية الاسلامية فى نماذج متباينة ولكنها تدخل جميعا فى اطار النظرية الاشتراكية . وما الاشتراكية العربية الا مثلا بارزا للتجارب الاشتراكية الحديثة التى تستمدأصولها الفكريةمن مبادىء الاسلام الاقتصادية والاجتماعية . ولا يتسع نطاق هذا الكتـــاب لعرض وتحليل مثل هذه التجارب ونكتفى بالاشارة الى ما يجرى الآن منها فى الجمهورية العربية المتحدة والجزائر والعراق .

الفصل الثامن

المفاهيم الديموقراطية للإسلام

« وامرهم شورى بينهم »
قرآن كريم

الاسلام عقيدة سمحة وديموقراطية بطبيعتها كما أوضحنـــــا فى الفصول السابقة . فمبدأ « **لا اكراه فى الدين** » مبدأ أساسى يكفل حرية الاختيار لكل فرد ! والمسلمون لا يعتبرون مسلمين بالمولد ولا تتخـذ أية طقوس أو مراسم لاعلان اسـلامهم عقب مولدهم كما هو الحال فى بعض الأديان الأخــرى . ان الطريق المستقيم واضـــح أمامهم ، وكذلك طريق الشر ! ولهذا تترك لهم حرية الاختيــار بين الطريقين . واختيــار الطريق المستقيم انما هو اسلام الأمر لله عــز وجل . ومثل هذا الاسلام الكامل الحر هو المعنى الحقيقى للاسلام . وهذا موضوع وفيناه حقه بحثا فى الفصل الخامس الخـاص بمعنى الاســلام ، ولا حاجة بنــا الى مزيد بحثه فى هذا الفصل . وانمـا سنركز اهتمامنا على المفاهيم الديموقراطية للمجتمع الاسلامى ، أو بعبارة أخرى القواعـد الديموقراطية التى يقام عليها صرح الدولة الاسلامية .

ان المجتمع الذى يتــألف أساسا من مواطنين أحــرار آمنــوا بعقيدتهم بناء على اختيار حر ، وحرروا أنفسهم بهذا الاختيار من سائر أنواع التبعية والاستسلام لأى كائن غير الله الواحد القهار ، والأعظم من كل من يزعم القوة والعظمة ، مثل هذا المجتمع لا يمكن الا أن يكون ديموقراطيا حرا ، أفراده كما قال الرسول « **سواسية كأسنان المشط** » وأكرمهم عند الله كما أعلن القرآن أتقاهم !(٣١٤) ولا يسمح بأى نوع من التفرقة أو التميز فى هذا المجتمع اللاطبقى. فعندما يؤدى المسلمون صلاة الجماعة مثلا انما يصلون فى صفوف متساوية وفى نسق تام . ولا تحجز أو تخصص أماكن معينة لهؤلاء الذين فى مراكز أو درجات أعلى ممن يجوز تقـدمهم أو تفضيلهم على الآخرين . كما لا يهتف فى المساجد لحكام أو قادة أو زعمـاء

---

(٣١٤) يرجع الى الآية ١٣ من سورة الحجرات

أو لأى من أصحاب السلطان • « **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا** »(٣١٥) ويسمى المسلمون المساجد عادة « **بيوت الله** » ، ولا يقيمونها كمجرد دور للعبادة • وانما يستخدمونها أيضا لأغراض جماعية لائقة وكريمة مثل التعليم واعطاء المحاضرات وعقد الاجتماعات العامة للتشاور • كما ينام فيها المسافرون الفقراء • وقد تؤدى المساجد أيضا وظيفة برلمانات محلية حيث يجتمع فيها الناس لمناقشة المسائل العامة ، ليس عقب صلاة الجمعة فحسب ، ولكن عندما تقتضى الضرورة فى أى وقت آخر مناسب • ويعالج الامام أو الخطيب قبل صلاة الجمعة عادة موضوعات الساعة وأهم أحداث الأسبوع ، وقد يثير خطابه مناقشة عامة عقب الصلاة • وكثيرا ما كان الخليفة ، وهو حاكم المسلمين المنتخب ، يلقى بنفسه خطاب صلاة الجمعة ويشارك فى المناقشات التى قد تعقب هذا الخطاب على قدم المساواة مع الحاضرين وفى حرية تامة ، وكثيرا ما كان يوجه النقد الى الخليفة أو يصحح أثناء تلك المناقشات • فلقد حدث مثلا أن قال الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ذات مرة ردا على امرأة تحدثه « **لقد أصابت امرأة وأخطأ عمر !** » ضاربا بذلك أروع مثل للروح الديموقراطية الحقة • وهذا المثل لا نسوقه كحادث فردى وانما هو نموذج لأسلوب فى الحكم يقوم على الاعتراف بالخطأ وعدم التمادى فيه تعاليا واستكبارا وهذا ما أكده عمر فى قوله المأثور « رجعة الى الحق خير من التمادى فى الباطل » •

وليس الحج أيضا مجرد فريضة من فرائض العبادة • فهو يتيح الفرصة لعقد نوع من المؤتمرات السياسية يضم ممثلى الدول الاسلامية القادمين من سائر أنحاء الأرض • والحجاج على اختلاف أجناسهم ومراكزهم يعاملون ، أو يعامل بعضهم بعضا على قدم

---

(٣١٥) سورة الجن ، الآية ٨

المساواة سواء عند الطواف بالكعبة أو فى الأماكن الأخرى للعبادة. ولهم بالاضافة الى مراسيم الحج أن يعقدوا الصفقات أو يبرموا الاتفاقات • « واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق • ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات »(٣١٦) • ولقد هيأ الحج فرص التشاور وتنسيق الجهود بعد أن اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وأصبحت مؤلفة من عدد من الأمصار أو الولايات تكون فى مجموعها ما تنشأ به الدولة الفيدرالية أو الكومونولث فى العصر الحديث • كما كان الحج يتيح أيضا لأبناء هذه الشعوب أن يشكوا ولاتهم الى الخليفة اذا ظلموهم واستبدوا بهم ، فينصفهم ويقوم الولاة ويصحح انحرافاتهم ويقوم نزعاتهم التميزية • ولقد استن عمر بن الخطاب هذا التقليد قائلا فى خطاب ألقاه أثناء الحج « يا أيها الناس ، انى والله ما أبعث عمالى ليضربوكم ولا ليأخذوا أموالكم • ولكن أبعثهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم • فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه الى فوالذى نفسى بيده لأقتصنه منه » •

ولقد سجل المؤرخون مواقف رائعة لعمر فى انصاف أهل الأمصار ، نذكر منها قوله المشهور لعمرو بن العاص « **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا** » عندما شكا اليه بعض المصريين من نزوعه هو وأبنائه الى التميز عليهم • وكتابته لعمرو بن العاص أيضا « رفع الى عنك انك تتكىء فى مجلسك ، فاذا جلست فكن كسائر الناس » •

ولقد كان جهاز الحكم أيام المسلمين الأوائل جهازا بسيطا متواضعا بالنسبة لأجهزة الحكم المعقدة فى العصر الحديث • فالعلاقات والمعاملات بين الأفراد كانت تحكمها لأكبر حد القيم

(٣١٦) سورة الحج ، الآيتان ٢٧ ، ٢٨

الخلقية والنوايا الطيبة • ولم تكن العقيدة الوازعة أو الواقية لتترك سوى مجالا ضئيلا لعقاب القانون ! ومن هنا لم تنشأ الحاجة لاقامة دار للحكم فى أول الأمر بل كان الرســـول وخلفاؤه الراشدون يصرفون الأمور فى مسجد الرسول بالمدينة • وكانت المساجد تؤدى عمـــوما وبكل بساطة وظيفة البرلمانات المحليـــة • وهكذا كانت ديموقراطية الاسلام بسيطة مباشرة • بل كانت عقيدة مشـــتركة عاشها الناس وطبقوها فى حياة كل يوم وســـادت مختلف نواحى نشـــاطهم ، وامتدت الى جميع مستويات عـــلاقاتهم بعضهم بالبعض الآخر • فقـــد سادت العـــلاقة بين الحاكم والمحكوم ، بين الرئيس والمرؤوس ، وبين الآباء والأبنـــاء الخ ••• ولم تكن هناك أحزاب سياسية فى ذلك الوقت ، ولكن كان المجال يترك أفسح ما يكون لابداء وجهة النظر الأخرى ، وكان الناس يتركون أحرارا فى التعبير عن آرائهم • وهم ان اختلفوا فى الرأى ، يحرص كل منهم عـــلى احترام رأى الآخر • وبهذا رأينا المدارس الفكرية المختلفة تتعايش سلميا ويتمتع أنصارها بحرية تامة دون تعرض لسلبيات الريبـــة والتجسس • « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضـــا »(٣١٧) ان الامعان فى الريبة فى دولة بوليسية لا يمكن أن ينجم عنه الا تفشى السلبية والشعور بعدم المبالاة أو عدم الاكتراث • وتلك محنـــة عاشتها فى العصرين القديم والحديث شعوب كثيرة تحت نير النظم الفاشية والدكتاتورية الغاشمة ولقد شجب الرسول هذا الأسلوب من الحكم القائم على الريبة بقوله « ان الأمير اذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم » •

ان اصطلاح الديموقراطية المبـــاشرة الذى اخترناه لوصف

---

(٣١٧) سورة الحجرات ، الآية ١٢

الديموقراطية الاسلامية وتحديد معالمها بدقة ، قد استخدم حديثا فى بعض الدول الاشتراكية (٣١٨) ويعنى الكتاب المعاصرون بالديموقراطية المباشرة ذلك النظام الذى يستطيع المواطن أن يمارس فى ظله حقوقه السياسية بطريقة مباشرة ، بحيث لا يخضع فى ممارستها لوصاية حزب واحد كما هو الحال فى نظام الحزب الواحد • وبحيث لا يمارس هذه الحقوق بطريق غير مباشر بواسطة من يتخيرهم أو يتورط فى اختيارهم من وسطاء السياسة المحترفين كما هو الحال فى نظام تعدد الأحزاب • وليست هذه المفاهيم الجديدة للديموقراطية المباشرة بالأصلية تماما ، بل هى فى واقــــع الأمر طبعة من الديموقراطية الاسلامية • وهنا ، كما فى حالات أخرى كثيرة ، لا يلبث الناس أن يشعروا فى نهاية المطاف باقترابهم من مبادىء الاسلام البســــيطة المرنة ، بعد عديد من محاولات التجربة والخطأ •

ويرأس الدولة الاسلامية حاكم عام يسمى ، « الخليفة » وعلى الرغم من أنه يمثل أعلى سلطة تنفيذية فى الدولة ، فقد كان يحرص دائما على التجرد من مظاهر الجاه والسلطة ، لا يجاوز حدود سلطاته ولا يخص نفسه وأفراد عائلته بامتيازات خاصة • بل كان يحيا حياة البساطة والتواضع ، ويتيح للمواطنين أن يتصلوا به اتصالا مباشرا، دون أبواب أو حجاب أو موانع ! وهذا ما استنه الرسول محمد كأول رئيس للدولة الاسلامية • فقد كان يعيش ويعمل فى ظروف مجردة من مظاهر الجاه والبزخ والاستعلاء • اتخذ من مسجد المدينة مقرا لتصريف أمور الدولة وأقام مع زوجاته فى غرف بجوار المسجد وكثيرا ما كان يؤدى بعض أعماله الخاصة بنفسه • وهذا ما أشاد

(٣١٨) استخدم هذا الاصلاح أخيرا الاستاذ «كاردل» من أبرز فلاسفة الحركة الاشتراكية اليوغوسلافية وقد عالجنا هذا الموضوع بتفصيل أكثر فى كتابنا « الاسلام والإصول الفكرية للاشتراكية العربية » فى معرض مقارنتنـــا بين المفاهيم الديموقراطية للاسلام وللاشتراكية المعاصرة .

به المنصفون من الكتاب الأجانب ، نذكر منهم السير **((وليام موير))** فى كتابه « **حياة محمد** » (٣١٩) حيث قال « **لقد كانت البساطة العملية تسود حياته . وقد اعتاد أن يعمل كل شيء بنفسه . فهو يساعد زوجاته في الأعمال المنزلية ويصلح ثيابه ويربط المعيز ... وكان يعيش مع زوجاته فى صف الحجرات المنخفضة بنيت من الطوب اللبن وسقفت بجزوع النخيل ..** » وقد نوه كارليل بهذه البساطة فى كتاب « الأبطال » قائلا أن بيته كان متواضعا قليل الكلفة وطعامه من خبز الشعير والماء . وانهم يسجلون بفخر أنه كان يصلح حذاءه ويرقع عباءته بنفسه . وقد رأى كارليل فى محمد البطل الحقيقي فاختاره فى كتابه ممثلا لبطولة الأنبياء والرسل قائلا « ان هذا الرجل ذى العباءة من صنعه قد حظا بطاعة لم يحظ بمثلها أقوى الأباطرة ! » .

والحق أن طاعة المؤمنون لمحمد لم تكن عن خوف أو رهبة ، وانما كانت ترجع أولا وأخيرا الى شخصيته القوية ووقاره وهيبته ، والى رقة شعوره وحسن معاملته وحلمه وتواضعه . ((**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك** (٣٢٠) **ولقد** نهج أبو بكر وعمرو نهج الرسول فى التجرد من مظاهر الجاه والسلطة وفى حياة التواضع والبساطة . ولو أننا رجعنا الى خطاب أبى بكر عند مبايعته أول خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول لوجدنا فيه درسا خالدا فى الديموقراطية وأبرع استهلال يمكن أن يستهل به حاكم ديموقراطى حكمه . لقد قال **أبو بكر فى** تواضع جم « **آيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم . ان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى آلا ان الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له . آلا وان القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق**

---

(٣١٩) Sir William's Muit : Life of Mohammed

(٣٢٠) سورة ال عمران ، الآية ١٥٩

منه ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فاذا عصيت فلا طاعة لى عليكم » .
والعبارة الأخيرة من الخطاب أن هى ألا ترديد لحديث الرسول ، لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » مما يوضح قطعا أن الاسلام لا يعترف بالحاكم المطلق وانما يعترف بالحاكم الأمين على مبادئه . ويدعو الناس الى عدم طاعته ثم خلعه اذا ما خرج على هذه المبادىء .
وكما استهل أبو بكر حكمه بهذه الكلمات القوية الخالدة ختمه أيضا بكلمات ليست بالأقل قوة ، الا وهى التى ضمنها فى وصيته الى خلفه عمر بن الخطاب قائلا « يا ابن الخطاب انى انما استخلفتك نظرا لما خلفت ورائى . وقد صحبت رسول الله فرأيت من اثرته انفسنا على نفسه وأهلنا على أهله .. وقد صحبتنى فرأيتنى انما اتبعت سبيل من كان قبلى . وان أول ما أحذرك يا عمر نفسك . ان لكل نفس شهوة . فاذا أعطيتها تمادت فى غيها . واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرىء منهم نفسه . وان لهم لحيرة عند زلة واحد منهم . فاياك أن تكونه . واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله . ولك مستقيمين ما استقامت طريقتك » .

لقد تولى عمر أمور المسلمين بعد أبى بكر فكان عليه ليس أن ينهج نهجه ونهج الرسول فى بساطة الحكم الديمقراطى المباشر فحسب بل كان عليه أيضا أن يروض نزعات الطموح والأثراء والتميز التى بدأت تظهر عقب الفتوحات الاسلامية وتأثر بعض القادة والولاة العرب بمفاتن الحضارة . الأمر الذى أدركه أبو بكر ببصيرته فنبه اليه عمر فى وصيته ! ومن هنا كانت شدة عمر على ولاة الأمصار حرصا منه على تجنب عوامل النكسة . فقد كان يجرد أموال الولاة الجدد قبل اسـتلامهم العمل ، ويفتش عليهم فى فترات دورية ويصادر ما يزيد فى أموالهم عن الحد المعقول ، ويحول دون نزعاتهم المظهرية فى بناء دور الحكم . ولا يغتفر لمن ينحرف منهم اساءة

معاملة المواطنين كما سبق أن أوضحنا . وكان ولاة الأمصار يقبلون شدة عمر عن طيب خاطر وقد رأوه يبدأ بنفسه ويضرب لهم أروع الأمثال فى التواضع والعدل واحترام حقوق المواطنين وتوكيدها . ولقد سجل التاريخ الكثير عن ديموقراطية عمر وبساطته . ولعل أروع ما سجله هو ذلك الذى حدث يوم جاء رســـول امبراطورية الرومان يبحث عن عمر فوجده نائما يفترش الأرض وعصاه تحت رأسه ، على نحو ما كان ليتصوره وما كان ليعهده أهل العصر فى أمرائهم وأباطرتهم ، فقال فى دهشة واعجــاب ((**حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر !**)) .

ولمن يريدون معرفة المزيد عن الديموقراطية الاسلامية كحقيقة عاشها المسلمون الأوائل أن يرجعوا الى المراجع التاريخية التفصيلية الخاصة بعهد الرسول وخليفيه العظيمين أبى بكر وعمر لكى يسيروا غور تلك التجربة الديموقراطية الفذة التم لم يشهد التاريخ مثالها ! ولا يتسع مجال هذا الفصل لدراسة تفاصيل تلك التجربة . ولهذا سنركز الاهتمام على ابراز أصولها النظرية كما وردت فى القرآن الكريم . وتعد هذه الأصول جزءا لا يتجزأ من عقيدة الاسلام . وما كان لأمة مسلمة أن تزعم أنها تعيش عقيدتها حقا ما لم تطبق هذه الأصول بنصها وروحها . **وأول هذه الأصول أو المبادىء هو وجــوب انتخاب رئيس الدولة الاسلامية انتخابا حرا عن طريق استفتاء عام ، تشترك فيه المرأة جنبا لجنب مع الرجل** . ولقد طبق مبدأ الاستفتاء أو البيعة حتى بالنسبة للرسول . « يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولايقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعضينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » (٣٢١)

---

(٣٢١) سورة الممتحنة ، الآية ١٢

ولقد كسبت المرأة حقها فى البيعة عن جدارة لأنها كانت فى طليعة الذين آمنوا ، ولأنها تعرضت للاضطهاد ، كما تعرض الـــرجل ، وهاجـرت الى المدينة كما هاجر الــرجال ، حيث تجمـــع المؤمنون والمؤمنات لتعبئة القوى استعدادا للكفاح المقدس فى سبيل الله .
وهكذا حقق الاسلام المساواة السياسية بين المرأة والرجل وساواها بالرجل فى مختلف الميادين الأخرى كما سبق بيانه فى الفصـــل السادس الخاص بالمقومات الخلقية للجتمع الاسلامى .

وليست البيعة عند المسلمين بالمطلقة أو الأبدية . لأن حـــرية اختيار الحاكم انما تعنى فى نفس الوقت حرية تقويمه اذا انحرف، والحق فى تنحيته اذا أمعن فى الانحراف والخطأ . واذا كان مبدأ البيعة أو انتخاب الخليفة باستفتاء حر ، لم يدم طويلا ، فان هذا لا يعنى انه ليس من مبادىء الاسلام الأساسية فقد كانت الأسرتان الحاكمتان الأمويةوالعباسية تمثلان انحرافا عنتعاليم الاسلام وأصوله فى الحكم . الأمر الذى استنكره أحد خلفاء بنى أمية وهو عمر ابن عبد العزيز محاولا احياء مبدأ البيعة ، بتنازله طائعا مختـــارا عن بيعته الوراثية . فقد أصر عمر قبل اعتلائهالعرش على أنيحصل أولا على موافقة الشعب وتأييده الحر . الا أن حكمــــه الــذى استغرق ثلاث سنوات فقط كان من القصر بحيث لم يساعد على احياء المبادىء الديموقراطية وتثبيتها . وسرعان ما عاد خلفاؤهالى نظام البيعة الوراثية . ولقد كان خطابه الافتتاحى عند توليه العرش فى مثل ذلك المستوى السامى النبيل الذى بلغه خطاب أبى بــكر حيث قال فى تواضع وأمانة . « أيهـــا الناس ، انى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين وانى قد خلعت مافى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم » وقدكان حكم عمر بن عبد العزيز ديمقراطيا حقا حتى لقد اعتبره المؤرخون

امتدادا لحكم الرسول والخلفاء الراشدين ، بل واعتبروه خامس هؤلاء الخلفاء الراشدين ، رغم الفاصل الزمنى بينهم وبينه !

والمبدأ الثانى من المبادىء الأساسية للديموقراطية الاسلامية هو مبدأ الشورى أو ادارة الناس أمورهم أنفسهم ، دون سيطرة من جانب ولاة الأمور . وعملا بهذا المبدأ لم يحاول خلفاء الرسول أن يفرضوا أنفسهم أوصياء مسيطرين على الناس . وقد اتبعوا جميعا أمر الله سبحانه وتعالى الى محمد « لست عليهم بمسيطر» (٣٢٢) وكانوا يسعون دائما للتشاور مع الناس فى كل ما يتعلق بتنظيم أمورهم العامة اسوة بما كان يفعل الرسول وعملا بقوله سبحانه وتعالى « وأمرهم شورى بينهم » (٣٢٣) وتدل هذه الآية على أن الشورى مبدأ أساسى من مبادىء الاسلام وقد تأكد هذا المبدأ فى توجيه صريح قاطع من الله سبحانه وتعالى الى محمد « وشاورهم فى الأمر (٣٢٤) وغنى عن البيان أن هذا التوجيه الصريح يسرى على كل حاكم اسلامى يحكم بما أمر الله ويتبع سنة الرسول الديمقراطى الأصيل . وتطبيق مبدأ الشورى انما يعنى ضمان حرية الكلمة بمعنى حرية النقد وتقبل الحاكم النقد . وهذا ما عبر عنه عمر بن الخطاب تعبيرا صادقا بقوله « لا خير فيكم **اذا** لم تقولها ولا خير فينا اذا لم نسمعها » . ردا على بعض الصحابة عندما لاموا مواطنا على قوله لعمر فى حضورهم « اتق الله يا عمر » . **والحاكم** الذى يطبق مبدأ التشاور باخلاص انما يعرف عن طريق التشاور ارادة المجموع ويتبع ارادة السواد الأعظم من الشعب . وهذا مبدأ يؤكد الحديث الشريف **« اتبعوا السواد الأعظم »** .

---

(٣٢٢) سورة الغاشية ، الآية ٢٢
(٣٢٣) سورة الشورى ، الآية ٣٨
(٣٢٤) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩

والمبدأ الأساسي الثالث هو أن يتجرد الحاكم من الهوى ويلتزم دائما جانب الحق والعدل ولو ضد مصالحه الخاصة .
« فأحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (٣٢٥) . والتزام الحق والبعد عن الهوى هما السبيل الوحيد والأكيد للعدل بين الناس جميعا والاحسان اليهم « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (٣٢٦) وليس الحاكم هو المطالب وحده بالعدل، بل ان الناس جميعا مطالبون بأن يعدلوا بعضهم مع البعض الآخر ولا يظلم بعضهم بعضا « لا تظلمون ولا تظلمون » (٣٢٧) وهكذا يصل الاسلام فى استنكاره للظلم الى أعلى مستوى يمكن تصوره من المثالية والنبل . ذلك انه يعتبر الظلم جريمة لا تغتفر بالنسبة لكل من الظالم والمظلوم الذى يقبل الظلم وهو لا ينهى المسلمين عن ظلم الغير فحسب بل يستحثهم على مقاومة الظلم اذا وقع بهم وعدم الرضوخ والاستكانة للظالم ، بل رده عن ظلمه ومواصلة الكفاح حتى يؤيدهم الله بنصره « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير (٣٢٨) واذا ماعجز المسلم عن رفع الظلم عن نفسه فى مجتمع قوامه الاستبداد ، وجب عليه أن يهاجر الى مكان يعيش فيه حرا فى أرض الله الواسعة ويستطيع أن يستأنف منه الكفاح ضد الظلم والطغيان « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة » (٣٢٩) . أماالذى يرتبط بأرضه ويقبل الظلم ويبقى فيها ليحيا حياة الذل والمهانة فهو يظلم نفسه ويهدر انسانيته وكرامته ويستحق عند

---

(٣٢٥) سورة ص ، الآية ٢٦
(٣٢٦) سورة النحل ، الآية ٩٠
(٣٢٧) سورة البقرة ، الآية ٢٧٩
(٣٢٨) سورة الحج ، الآية ٣٩
(٣٢٩) سورة النحل ، الآية ٤١

الله العقاب الشديد « أن الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » (٣٣٠) وليس أدل على عمق مغزى هذه الآية الكريمة وتأصله فى نفوس المسلمين الأوائل من اتخاذهم بداية التقويم الاسلامى أو التاريخ الاسلامى من حادث هجرة الرسول وصحبه من مكة الى المدينة ـ حيث جمع المسلمون قواهم كنقطة ارتكاز وانطلاق للكفاح الايجابى المقدس لذلك معاقل المدينة المكرمة أول مدينة فى الجزيرة العربية تشهد تجربة الديموقراطية الاسلامية الأصيلة . ولم تلبث أن اتسعت رقعة هذه التجربة باتساع الاسلام وقيام دولة المسلمين .

تلك فكرة سريعة عن أصول الديموقراطية الاسلامية كما رجعنا اليها فى القرآن الكريم . ولئن كان الاسلام ديموقراطيا الى هذا الحد ، ولئن كانت الجماعة الاسلامية الحقة نموذجا للديموقراطية البسيطة والمباشرة ، فهل يحق لأحد أن يزعم أن الاسلام يسمح بنظام الرق ويباركه كما يغالط بعض الكتاب الغربيين المضللين ؟ ان الاسلام ، على الرغم من ظهوره فى زمن كان الرق فيه جزءا لا يتجزأ من النظام الاقتصادى وشيئا عاديا عند الأخلاقيين ، اتخذ موقفا صريحا واضحا من استعباد الانسان لأخيه الانسان . فهو لم يقف عند حد غلق جميع المنافذ الى الرق فيما عدا منفذا واحدا وهو الأسر فى الحرب ، بل قضى بتحرير العبيد كقاعدة عامة تطبق على أساس اختيارى ، وكفريضة واجبة للاعفاء من بعض العبادات فى ظروف خاصة أو للتكفير عن بعض الأخطاء ، كما سبق ايضاحه فى الفصل السادس ويبدو مبدأ تحرير الرق واضحا فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، نذكر

---

(٣٣٠) سورة النساء ، الآية ١٧

منها الآيات التالية من سورة البلد لأنها تتضمن فكرة العتق الاختيارى : « وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة » (٣٣١) .

لقد ظل الرق محصورا فى الدول الاسلامية فى نطاق ضيق ولا يكاد يتعدى أغراض الخدمة المنزلية ، حيث تعمل العلاقات الشخصية المباشرة كضمان لحسن المعاملة ، وهذا ما نوه به انجرام فى كتابه عن تاريخ الرق . ولم تبلغ تجارة الرقيق العربية فى شرق افريقية حتى وهى فى ذروتها من الكم والخطورة مايمكن مقارنته بتجارة الرقيق الأوروبية فى غرب إفريقيا التى اتسع نطاقها وارتبطت ارتباطا وثيقا بالتوسع الاستعمارى الأوربى واكتنفها الكثير من الجرائم والفظائع . واذا كانت الدول الغربية هى التى تزعمت حركة تحرير الرقيق فى القرن التاسع عشر فقد كان ذلك لأسباب ليست بالانسانية تماما كما أوضحنا فى الفصل السادس ، فان مصر وبعض الدول العربية الأخرى كانت فى طليعة الدول التى أسهمت فى هذه الحركة بأموالها بل ودماء أبنائها . وما كان التجار العرب الذين توغلوا فى جوف القارة الافريقية ليقترفوا فى يوم من الأيام جرائم الخطف والاسترقاق التى اقترفها المستعمرون ، بل كانوا رسل حضارة وايمان الى هذه القارة . وهذا ماشهد به المنصفون من الكتاب الغربيين ، نذكر منهم «بوزورث سميث» (٣٣٢) الذى أوضح فى كتابه عن محمد والمسلمين كيف انتشر الاسلام سريعا فى افريقيا ودانت له فى خلال نصف قرن من وفاة الرسول أغنى دول أفريقيا ، بل وأكثرها قابلية للمسيحية والمدنية بدون مقاومة تذكر وبلا أسف . وكيف امتدت موجة الاسلام بعد ذلك جنوبا فى

---

(٣٣١) سورة البلد ، الآيات ١٥ ـ ١٦

(٣٣٢) Bosworth Smith : Mohamed & Mohammedans

الطرف الشمالى الغربى من مراكش حتى بلغت فى زمن الفتح النورمندى تخوم تمبكتو . وواصلت موجة الاسلام سيرها جنوبا وشرقا حتى بلغت فى القرن الثالث عشر بحيرة تشاد التى تصافح على ضفافها العرب القادمون من الشرق مع اخوانهم القادمين من الغرب . وامتدح الكاتب الأثر الايجابى للاسلام فى افريقيا قائلا: « وانا لنسمع عن قبائل بأسرها تطرح جانبا الوثنية والشعوذة وعبادة الشيطان لترتقى الى أعلى مستويات العقيدة الدينية . ولقد لاحظ المسافرون الغربيون ، رغم كل رغبة من جانبهم فى عكس هذا ، أن الزنجى الذى يعتنق الاسلام لا يلبث أن يكتسب شعورا بالعزة والكرامة الانسانية لا نلمس مثلها عادة بين هؤلاء الذين ينضمون الى المسيحية ! » ويمضى سميث فى اشادته .. بايجابية الاسلام فى افريقيا فيقول : « نحن متأكدون من جميع النواحى أن للسكان المسلمين رغبة عاطفية فى التعليم .. وحيثما يوجد عدد من المسلمين يسرعون الى انشاء مدارسهم الخاصة ، ومنهم غير قليل يقطعون المسافات الشاسعة للحصول على أفضل تعليم » . ونوه الكاتب بدور المساجد فى نشر العلم والثقافة والفلسفة وسموها بأرواح وعقول الافريقيين .. هكذا كانت رسالة التجار العرب فى أفريقيا . أما رسالة التجار الأوربيين فكانت فى نظر هذا الكاتب الموضوعى المنصف هى السطو والقسوة . وقد اقتبس فى كتابه قول ليفنجستون « أن الذى تعلمته شعوب افريقيا من احتكاكها بالبورتغاليين خمسمائة سنة هو فن تقطير الخمر من برميل بارود ، وان العقيدة الوحيدة التى يدينون بها لهم هى ان الانسان يمكنه أن يبيع أخاه الانسان ! » . ثم تساءل فى النهاية عما اذا كانت الدولة الاسلامية أو المسيحية هى التى أسهمت بأوفر نصيب فى نهضة افريقيا . ولم يقف عند حد السؤال ، بل قالها فى صراحة : « ان الجواب لايمكن أن يكون فى صالح المسيحيين ! » .

الفصل التاسع

الإسلام والتعايش السلمي

((يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم))
(قرآن كريم)

لم تكن الجماعة الاسلامية في يوم من الأيام جماعة مغلقة . وما كانت لتعزل نفسها اولتوصد ابوابها فى وجه الجماعات أو المجتمعات الانسانية الأخرى التى تشاركها الحياة على هذه الأرض . فلقد أمر الله عز وجل المسلمين أن يسيروا فى أرضه الواسعة وأن يختلطوا ويتعارفوا بغيرهم من الجماعات بغية التفاهم المتبادل والتعاون . « يا أيها الناس انا خلقناكم مّن ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » (٣٣٣) ولقد كانت دعوة محمد ، على خلاف دعوات الأنبياء الآخرين ، دعوة عالمية موجهة للانسانية جميعا وليس لقومه فحسب . وما أن وحد وآخى القبائل العربية المتنافرة تحت لواء الاسلام ، حتى بعث برسالة الى كل من امبراطور الرومان وشاه الفرس كحاكمين لأكبر دولتين فى ذلك الوقت . ولعله بدا من الغريب يومئذ أن يقدم زعيم دولة ناشئة لا تزال فى المهد على دعوة الحاكمين العظيمين المستكبرين لأكبر دولتين فى العالم الى الحكمة والسلام تحت لواء الله وهدايته ، ولكن كان هذا أمر الله الى محمد ، وما على الرسول الا أن يبلغ الدعوة لكل شعوب الأرض .

لم تلبث الدعوة الاسلامية أن انتشرت فى أعوام قلائل واتسعت رقعة تلك الدولة الاسلامية الناشئة ناشرة مبادىء الدين الجديد فى أغلب أنحاء العالم القديم . فتوغلت فى شمال افريقيا حتى بلغت شواطئ المحيط الاطلسى ، واجتازت شبه الجزيرة الاسبانية لتدق الأبواب الجنوبية الغربية للقارة الأوربية . وفى الشرق اجتاحت موجة المؤمنين المتحمسين العارمة هضاب وسهول آسيا الوسطى وتوغلت فى شرق آسيا حتى أطلت على مياه المحيط

---

(٣٣٣) سورة الحجرات ، الآية ١٣

الهادى . الأمر الذى حدا بالكثير من المؤرخين الى التساؤل ، كيف حدث مثل هذا التوسع والامتداد فى وقت قصير كهذا ؟ هل كان العرب ، ثم المسلمون عموما ، يتوسعون على هذا النحو كغزاة فاتحين يريدون اخضاع العالم لسلطانهم ؟ وهل انتشر الاسلام حقيقة بحد السيف ؟ وكيف استقبل جيوش المسلمين سكان تلك البلاد التى غمرتها موجة الاسلام العارمة ؟ وكيف عامل المسلمون رعايا البلاد التى خضعت لحكمهم ؟ لقد كانت هذه الأسئلة وأمثالها ، التى لا تخلو من حساسية ، مثار خلاف بين المؤرخين وعلماء الأديان من غير المسلمين . وليس فى نيتنا أن نتصدى فى هذا الفصل للدفاع عن الاسلام ضد بعض الحملات السلبية لهؤلاء الذين لا يعرفون الا النذر القليل أو لا يعرفون شيئا قط عن عقيدة الاسلام . وانما الذى يعنينا حقا هو أن نعطى بكل بساطة صورة ايجابية لقواعد الحرب والسلام ولمبادىء النوايا الطيبة والتعايش السلمى كما طبقتها وعاشتها الدول الاسلامية ، والتى كان عليها كدولة ناشئة أن تتعامل مع دول مجاورة قديمة وقوية . ولئن كانت هذه الدولة الناشئة قد اضطرت لامتشاق السلاح ضد بعض الدول ، إفهى قد نجحت من جهة أخرى فى الاحتفاظ بالعلاقات السلمية الطيبة مع دول أخرى . ولنذكر كمثال محدد العلاقات الودية التى كانت سائدة بين المسلمين وامبراطورية الحبشة التى لجأ اليها بعض المسلمين الأوائل فرارا من الاضطهاد قبل هجرة المؤمنين الجماعية الى المدينة المكرمة . والواقع أنه ما من مرة حارب فيها المسلمون ، الا وكانت حربهم دفاعا عن النفس . ولم يحدث قط أن قاموا بشن حروب عدوانية. ولقد اتبع المسلمون فى علاقاتهم بالدول الأخرى قواعد السلام والحرب ، كما وردت فى القرآن ، ولسوف نتخذ من هذه القواعد مرجع دراستنا فى هذا الفصل مع قليل من الحقائق التاريخية الموضحة .

ان واجب المسلمين الأول أن يتجنبوا ما وسعهم الجهد النزوع الى العنف والحقد والعدوان . وأن يبدءوا دائما بالتى هى أحسن « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٣٣٤) وعلى المسلمين أن يسعوا دائما لاقرار السلام وأن يلتزموا به . ولا يجوز لهم أن يكونوا البادئين بالعدوان أو يسعوا للسيطرة والاستعلاء على غيرهم . « **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للتقين** »(٣٣٥) ومما هو جدير بالذكر أن البيئة التى ظهر فيها الاسلام كانت أبعد ما تكون عن التمسك بالسلم . فقد كانت القبائل العربية المتنازعة فى حروب مستمرة بعضها ضد البعض الآخر . وكانت شبه الجزيرة العربية فى أغلب الأوقات مسرحا للعدوان والانتقام والثأر . وقد تحول هؤلاء العرب المتفرقون المتنازعون بفضل الاسلام الى أمة موحدة محبة للسلام وتوقف القتال فيما بينهم . «و واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (٣٣٦) ولم يقف الاسلام عند هذا الحد ، بل أعلن مبدأ اخوة المؤمنين كأحد مبادئه الأساسية . « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (٣٣٧) ولكن ماذا يكون الحل اذا تشب خلاف بين فئتين من المسلمين وتطور الموقف الى حد اضطرار أحداهما الى امتشاق الحسام فى وجه الأخرى ؟ يتعين أن يقوم

---

(٣٣٤) سورة فصلت ، الآية ٣٤
(٣٣٥) سورة القصص ، الآية ٨٣
(٣٣٦) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣
(٣٣٧) سورة الحجرات ، الآية ١٠

طرف ثالث من المؤمنين بدور الموفق بينهما «وأن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين » (٣٣٨) هذه هي قواعد تسوية المنازعات الداخلية بين المؤمنين ، فما هي القواعد التي تحكم علاقاتهم بالأغراب أو الأجانب ؟ ما هي قواعد اعلان الدولة الاسلامية الحرب على دولة أخرى معادية ، وما هي قواعد اقرار السلام بينهما ؟ لقد جاء الاسلام بقواعد ومبادىء عامة معينة خاصة بالحرب والهدنة وابرام السلم الخ يمكن أن تعتبر في مجموعها بمثابة النواة الأولى للقانون الدولي العام ، كما يمكن أن ترجع اليها الأصول الفكرية لنظرية التعايش السلمي .

وتتلخص هذه القواعد والمبادىء فيما يلي .

١ ـ هي الحرب الدفاعية فقط المسموح بها للمسلمين ، سواء أكانت لرد عدوان أو لدفع ظلم وطغيان « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٣٣٩) هذا ويستحسن أن يكبح الانسان جماح نفسه بقدر الامكان ولا يغالي في الانتقام ، بل يعفو ويصفح « والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين » (٣٤٠) ولكن العفو والصفح هما الاستثناء . أما القاعدة العامة فهي القتال دفاعا عن النفس دون غلو الانتقام . « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله

---

(٣٣٨) سورة الحجرات ، الآية ٩

(٣٣٩) سورة البقرة ، الآية ١٩٠

(٣٤٠) سورة الشورى ، الآيتان ٣٩ ، ٤٠

الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » (٣٤١) وذلك لأنه لو كان العفو والصفح هما القاعدة وليسا الاستثناء لشجع هذا المعتدين على الاستمرار فى الاعتداء ، ولما وجدوا ما يردعهم عن ظلم الآخرين ، فيعم الأرض الظلم والفساد وينتهى الأمر بالناس الى الدمار الشامل « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » (٣٤٢)

٢ ـ يجب على المسلمين عندما يقاتلون أن يحرصوا أثناء القتال على أن يكونوا مع خصومهم شرفاء عادلين . ولا يجوز لهم أن يمارسوا معهم وسائل الاذلال والامتهان والتعذيب وسوء المعاملة « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على الا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » (٣٤٣) وعلى المسلمين أن يتحلوا بخلق الشهامة ومبادىء الفروسية مع خصومهم الى حد أن يحموا عدوهم اذا لجأ اليهم طالبا الحماية . « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » (٣٤٤) وما أكثر ما يمكن الرجوع اليه من أمثال الشهامة والفروسية فى تاريخ الاسلام وحروب المسلمين . ويكفى أن نشير هنا مجرد اشارة عابرة الى ما خبره الصليبيون من شهامة العرب خلال القتال المرير طوال فترة الحروب الصليبية العصيبة . وما قصة صلاح الدين وعلاجه لرتشارد قلب الأسد الا مثلا واحدا يعرفه الجميع .

---

(٣٤١) سورة الحج الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .
(٣٤٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥١
(٣٤٣) سورة المائدة ، الآية ٨
(٣٤٤) سورة التوبة ، الآية ٦

٣ ــ لا تجوز المغالاة فى القتال دفاعا عن النفس أو الامعان فى الانتقام من المعتدين • بل يجب وقف الحرب الدفاعية بمجرد تحقيقها للغرض وتأمينها لسلامة المؤمنين . « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله الله فان انتهوا فان الله بما يعلمون بصير » (٣٤٥) ومتى القى العدو السلاح ثم طلب الهدنة وجنح الى السلم يجب على المسلمين أن يتجاوبوا معه ويعملوا على اقرار السلام . « وان جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » (٣٤٦) .

٤ ــ السلم الدائم هو الهدف النهائى النبيل للمسلمين • حتى لقد اتخذوا من السلام تحيتهم اليومية « السلام عليكم » كما سيكون السلام تحيتهم فى الجنة أيضا . « تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما » (٣٤٧) « وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها بأذن ربهم تحيتهم فيها سلام » (٣٤٨)ولتقوية الرغبة فى السلم وتثبيته فى عقول المسلمين سميت الجنة فى بعض آيات القرآن الكريم « دار السلام » . **« والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم »**

٥ ــ يحرم الاسلام الغزو والحرب الهجومية تحريما باتا « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٣٤٩) وأيا كانت دوافع أو مبررات العدوان فى ضوء تجارب الماضى المريرة ، يجب الحد من

---

(٣٤٥) سورة الانفال ، الآية ٣٩
(٣٤٦) سورة الانفال ، الآية ٦١
(٣٤٧) سورة الاحزاب ، الآية ٤٤
(٣٤٨) سورة ابراهيم ، الآية ٢٣
(٣٤٩) سورة المائدة ، الآية ٧٨

النزوع للهجوم والعدوان وكبح جماحه بكل لوسائل « ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب » (٣٥٠) والاسلام اذ يحرم الحرب العدوانية انما يحرمها تحريما قاطعا بالغا لا يسوقة على سبيل الوعظ أو النصيحة ، وانما يرسيه على قاعدة مكينة ، بمنع أخطر أسباب النزعة العدوانية وهما العنصرية والعصبية . وهذا مايؤكدة الحديث الشريف فى حسم « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » .

٦ — على المسلمين ان يحترموا ويفوا بالتزاماتهم التعاهدية دائما « الا الذين عاهدتهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم أن الله يحب المتقين » (٣٥١) واذا لم يحترم الطرف الآخر التزاماته التعاهدية ، وتحين كل فرصة لنقضها أو للتحلل منها ، يجوز للمسلمين أن يفسخوا التعاهد أو المعاهدة بينهم وبينه « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لايحب الخائنين» (٣٥٢) وهكذا يجب على المسلمين أن يحاربوا الخونة وناقضى العهد طالما هم ينزعون للعدوان . « الا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم

---

(٣٥٠) سورة المائدة ، الآية ٢

(٣٥١) سورة التوبة ، الآية ٤

(٣٥٢) سورة الانفال ، الآيات ٥٦ — ٥٨

مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (٣٥٣) .

٧ ـ نوه الاسلام بأهمية الجبهة الخلفية فى القتال وأمر المسلمين بأن لا يقاتلوا جميعا فى جبهة القتال بل يتخلف بعضهم لتعليم الدين « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم يحذرون » (٣٥٤) .

تلك هى القواعد الاسلامية التى تحكم علاقات الحرب والسلم، وهى تبرز بوضوح أن الأمة الاسلامية هى بطبيعة تقدميتها أمة محبة للسلام (٣٥٥) كما تدل هذه القواعد أيضا على أن المسلمين كانوا رواد « التعايش السلمى » الأوائل . ولئن كانوا قد اضطروا لخوض بعض الحروب ، فقد كانت هذه حروبا دفاعية بحتة . حتى لقد رحب بهم أهل البلاد المجاورة التى دخلتها جيوشهم كمحررين ومنقذين وليسوا كغزاة فاتحين . وانها لحقيقة تاريخية ثابتة أن جميع الشعوب التى قاست ما قاست تحت نير الاستعمار الرومانى أو الدكتاتورية الفارسية الغاشمة قد رحبت بجيوش المسلمين وصفقت لانتصارها على الفرس والرومان . الامر الذى يوضح أن الاسلام لم ينشر بحد السيف كما حاولت أن تصوره بعض الدعايات المغرضة المضللة وانما تعاونت على انتصاره وانتشاره عوامل ايجابية انبثقت من قوة عقيدته وبساطتها ومفاهيمها الديمقراطية وطابعها التحررى الواضح . فلا عجب اذا كانت مثل هذه العقيدة قد دفعت

---

(٣٥٣) سورة التوبة ، الآيتان ١٣ ، ١٤

(٣٥٤) سورة التوبة ، الآية ١٢٢

(٣٥٥) يرجع فى تفاصيل هذه القواعد الى الاستاذ الكبير عبد الرحمن عزام فى كتابه « الرسالة الخالدة » باب العلاقات الدولية .

المسلمين بقوة دافعة قدسية فتحت قلوب الناس لهم قبل أن تفتح أبواب المدن المنيعة وتقتحم أسوارها المحصنة .

لم يكن انتشار الاسلام السريع بحد السيف وانما جاء بفعل تلك القوة الدافعة التى ولدتها عقيدته فى قلوب المسلمين وما أحدثته من تجدد فى نفوسهم ، ذلك التجدد الذى ضرب المثل الحى الطيب لغير المسلمين فاجتذبهم الى الاسلام طائعين مختارين . وليس أول على ذلك من أن هذه العقيدة قد قهرت من قهروا الدولة الاسلامية وهى فى أوج مجدها ، وألعزت جانب المسلمين بعد أن غلبوا على أمرهم فى حرب المغول وسقطت امبراطوريتهم العظيمة بسقوط بغداد عام ١٢٥٨ . الا أن المغول رغم انهم وجهوا الى العالم العربى والاسلامى بسقوط بغداد ضربة قاصمة ، لم يوفقوا الى توجيه مثل تلك الضربة الى الاسلام كعقيدة ، كما نوه بذلك ويلفرد كانتل سميث فى كتابه عن الاسلام فى التاريخ الحديث (٣٥٦) وما كان المغول ليبتلعوا الاسلام بل هو الذى ابتلعهم . اذ لم يلبث أن اعتنق هؤلاء الغزاة الفاتحون الاسلام بعد خمسين عاما من انتصارهم وتحولوا الى خدمته واعلاء رأيته مسهمين بذلك فى تدعيم البناء الذين حاولوا فى بداية الامر أن يهدموه ! ويعترف كاتبان غربيان أخران بجاذبية عقيدة الاسلام وقوتها الدافعة وهما « فلويدروس» و « تنيتى هيلز » فى كتابهما « الاديان الكبرى التى يعيشها الناس (٣٥٧) فيقولان بأخلاص وصراحة « لقد عرف العالم منذ زمن بعيد ماقدمه له العرب المسلمون ، فلقد تغير مجرى تاريخ العالم يوم سارت جيوش المسلمين الاوائل عبر سوريا . وعلى الرغم من

---

(٣٥٦) Wilfred Cantwell Smith : Islam in Modern History (Mentr) pp. 40-42.

(٣٥٧) Floyed H. Ross & Zynette Hills : The Great Religions by which Men Live ... (Crest Book) p. 181.

شكاوى المهزومين فان المسلمين جاءوا معهم بقوى الخير ، وقد عملوا على تقدم الفنون والعلوم والطب اينما ذهبوا . كما أقروا الامن والخلق . وهؤلاء الذين قبلوا أن يعبدوا الله الذى يعبده المسلمون انما اسلموا لاله له الجلال والعزة وعلى استعداد دائم لان يسعى اليه حتى احقر الناس شأنا ! لانه لا يوجد فى عين الله قوم حقراء ، بل الجميع سواسية ! وما كانت أخوة الاسلام لتقف عند حدود الوطن أو الجنس أو الثروة . فالمسلمون يعتقدون بحق أن عين الله لا ترى تلك الفوارق الفارغة التى يتصورها الناس فى بعض الاحيان »

ويؤمن المسلمون فى العصر الحديث بالتعايش السلمى ايمانا قويا مستمدا من تراثهم الاسلامى ، ولهذا نرى الدول الاسلامية تكون غالبية الدول المنتمية الى مجموعة الحياد وعدم الانحياز ، كما يبدو ذلك بوضوح فى عضوية دورات مؤتمر الدول غير المنحازة ، وفى مواقف الدول الاسلامية فى الأمم المتحدة على العموم .

محتويات الكتاب

مقدمة الطبعة العربية
من ص ٣ ــ ١٠

***

تقديم الطبعة الانجليزية
من ص ١١ ــ ١٥

***

الفصل الاول
نشأة وتطور الاديان
من ص ١٧ ــ ٤٠

كيف نشأت فكرة الدين ــ اهتداء الانسان الى وجود الله ــ شعور الانسان بالضعف أمام قوى الطبيعة الخارقة واستنجاده بالله خالق ومحرك هذه القوى ــ غلبة الرمزية والوساطة على فكرة الدين قبل نضوج الفكر الانسانى ــ ابراهيم يحرر الدين من الرمزية والوساطة ويعتمد على التأمل والتجريد ــ دعوة موسى وتحرير بنى اسرائيل ــ تعرض الدعوة للنكسة فى حياة موسى ــ النكسة بعد وفاته ــ عيسى وتجديد الدعوة الموسوية وتحريرها من الانحراف والجمود والانطلاق بها الى مجالات أوسع ــ انتشار المسيحية بعد عيسى ــ الخلافات بين المسيحيين وتسرب الطقوس وغلبة الشكليات ــ تالية عيسى وانتكاس الدعوة المسيحية ــ دعوة محمد وظهور الاسلام كآخر مرحلة فى تطور الدين ــ اكتمال رسالة الدين فى الاسلام كدعوة عالمية قائمة أساسا على وحدة الدين واخوة المؤمنين ــ المبادىء الأساسية للاسلام والآفاق الجديدة التى استحدثها ــ ارساء مقومات المجتمع الاسلامى وقواعد الدولة الاسلامية .

الفصل الثانى
الخــلق والخــالق
من ص ٤١ ــ ٥٠

نظرية الاسلام فى الخلق والخالق ــ والاعتماد على شواهد وآيات الخلق لاثبات وجود الخالق دون التورط فى بحث تفاصيل وتوقيت عملية الخلق ــ انسـجام النظرية الاسـلامية مع تطورات العلم الحديث ــ ما كان الخلق ليتم صدفة ــ الآلية التلقائية مستوحاة من الخلق وهى تثبت وجود الخالق ولا تنفيه ــ ادراك وجود الله بالحكمة والبصيرة .

***

الفصل الثالث
طبيعة الانبياء ورسالتهم
من ص ٥١ ــ ٦٨

تعريف الأنبياء ــ طبيعة الأنبياء كبشر وحدود قدراتهم ــ دعوات الأنبياء المتعاقبة كحركات تحرر اجتماعى ــ تحليل الوضع الطبقى لمن عارضوا الأنبياء ومن أيدوهم ــ الطغاة والمتكبرون ــ الأغنياء والمترفون ــ الرجعيون ــ الضعفاء والجبناء ــ الجهال ــ اللاهون والعابثون ــ التفسير المادى للتاريخ ــ وظيفة الأنبياء وحدود طاقتهم .

***

الفصل الرابع
القرآن الكريم
من ص ٦٩ ــ ٨١

القرآن معجزة الاسلام الخالدة ــ الفرق بينها وبين معجزات الأنبياء الآخرين ــ كيفية نزول القرآن ــ حكمة نزوله على فترات ــ الحفاظ على القرآن وحمايته من التحريف والتغيير ــ القرآن يفسر القرآن ــ محتويات القرآن .



الفصل الخامس
معنى الاسلام
من ص ٨٣ ــ ٩٠

تعريف الاسلام ــ الاســلام دين الفطرة ــ أمثلة لذلك من القرآن ــ وصف المؤمنين قبل ظهور الاسلام بالمسلمين ــ الاسلام والتوحيد ــ الدعوة الى وحدة الأديان كنتيجة طبيعية لوحدة الله ــ لا اكراه ولا تزمت بل يسر ومرونة دون مهادنة او تفريط ــ قابلية الاســلام للتطوير فى تفاصيل التطبيق دون المســاس بمبادئه الأساسية العامة ــ الاسلام ينسجم مع العلم ويشجعه ويدعو اليه .

***

الفصل السادس
المقومات الخلقية للمجتمع الاسلامى
من ص ٩١ ـ ١١٨

الأديان وارساء المقومات الخلقية للمجتمع الانسانى ـ وصايا موسى العشر ـ متابعة المسيح للوصايا وتطويرها ـ الاسلام يتابع التطوير ويهتم بدقائق حسن التصرف والذوق السليم ـ فلسفة المسئولية والتبعة ـ سلبية التحريم وايجابية القدوة وضرب المثل ـ الجوانب الايجابية فى الخلق الاسلامى ـ وضع المراة فى المجتمع الاسلامى تعدد الزوجات قبل الاسلام وبعده ـ التعدد يتحول من قاعدة الى استثناء فى حدود مقتضيات الضرورة وبشرط التسوية فى المعاملة ـ الطلاق لا يلجأ اليه الا كحل أخير بعد استنفاد وسائل التوفيق والتحكيم ـ الاسلام وتحرير الرقيق ـ العبادات والفروض الاسلامية وضرورات الحياة اليومية ـ الوازع الداخلى اقوى واكثر فاعلية من سلطة القانون .

***

الفصـــل الســابع
المبادىء والنظم الاقتصادية للاسلام
من ص ١١٩ ـ ١٣٦

تجاهل مؤرخى المذاهب الاقتصادية من الفربيين للمبـــادىء الاقتصـــــادية للاسلام • النظريات العلمية فى الاقتصــــاد التى استحدثها الاسلام ـ نظرية دورة الانفاق الخيرة ـ الحد من ارباح الوساطة وتحريم الربا ـ الوظيفة الاجتماعية للملكية الخاصـــة ـ

الاســلام يضع أول نظرية علمية للاشتراكية الاسلامية وتــكافؤ الفرص ـ العمل فريضة ولا يجوز انفصال الملكية عن العمل ـ المجتمع الاسلامى مجتمع لاطبقى ـ درجات اقتصادية على أساس العمل بين حدين أدنى وأعلى للمعيشة ـ الحد الأدنى على أســاس الكفاية والاشتراك فى التمتع بخيرات الطبيعة وثمار العلم والمدنية أسس وأبعاد الحد الأعلى للمعيشة ـ الاشتراكية الاسلامية عاشت فعلا كنظام فى صـدر الاسلام ـ بعث الاشتراكية الاسلامية فى العصر الحديث .

***

الفصل الثامن

المفاهيم الديموقراطية للاسلام

من ص ١٣٧ ـ ١٥١

الاســلام وحرية الاختيار ـ لا اكراه فى الدين ـ المجتمع الاسلامى مجتمع حر يتألف من أفراد أحرار ـ المســجد بيت الله وبيت الشعب ـ صـلاة الجمعة ومناقشــة أمور المســلمين ـ وظيفة الحــج كمؤتمر اسلامى عام ـ بســاطة جهاز الحكم عند المســلمين الأوائل ـ أولى تجارب الديمقراطية المباشرة ـ الأمر شورى ـ افســاح المجال لوجهــة النظر الأخرى ـ لا ريبة ولا تجســس ـ انتخاب رئيس الدولة الاسلامية ـ البيعة ـ دروس ديموقراطية من أبى بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ـ الحقوق السياسية للمرأة المسلمة ـ الحرية أغلى مافى الحيــاة ـ الهجرة واجب على المســلم حيثما لا يستطيع أن يعيش حرا ـ الاسلام وتحرير الرقيق .

الفصل التاسع
الاسلام والتعايش السلمى
من ص ١٥٣ ـ ١٦٣

الجماعة الاسلامية ليست بالمغلقة أو المنعزلة عن المجتمعات الأخرى ـ دعوة المسلمين الى التعارف بالشعوب الأخرى والتعامل معها ـ الاسلام يتخطى مرحلة الوطنية الى مرحلة العالمية ويسعى الى الانتشار فى سائر أنحاء الأرض ـ المسلمون رواد التعايش السلمى ـ تحريم التعصب والعدوان والعنف ـ تحريم الحروب فيما عدا الدفاعية لدفع الاعتداء ـ وجوب الاستجابة لدعوة الطرف الآخر الى السلم هو الهدف الأعلى والأخير ـ احترام المعاهدات والمواثيق ـ انتشار الاسلام بقوته الذاتية الدافعة وليس بحد السيف ـ ترحيب شعوب البلاد المفتوحة بالمسلمين واستقبالهم كمحررين ومنقذين .



السلسلة العمالية صدر منها :

١ ــ العمال وثورة ٢٣ يوليو .
٢ ــ التنظيم السياسى والمفاهيم الاشتراكية .
٣ ــ الجذور التاريخية لثورة ٢٣ يوليو .
٤ ــ التنظيم والبنيان النقابى .
٥ ــ الحركة العمالية الأفريقية .
٦ ــ الحركة النقابية العربية .
٧ ــ الثقافة الصحية العمالية .
٨ ــ حقوق العمال وواجباتهم .
٩ ــ مبادىء الاقتصاد للعمال .
١٠ ــ مبادىء التأمينات الاجتماعية .
١١ ــ السياسة الدولية للعمال .
١٢ ــ دليل الأمن الصناعى المبسط .
١٣ ــ نشأة الحركة النقابية وتطورها .
١٤ ــ أبعاد معركة المصير فى مواجهة الصهيونية والامبريالية .
١٥ ــ اشتراك العمال بمجالس الادارة .
١٦ ــ المدخل والتشريعات فى الأمن الصناعى .
١٧ ــ تنظيم الأمن الصناعى وتخطيطه فى المنشآت .
١٨ ــ المخاطر الهندسية والوقاية منها .
١٩ ــ المخاطر البيئية والوقاية منها .
٢٠ ــ نحن والعالم الخارجى .
٢١ ــ الأمراض المهنية ومخاطر العمل والوقاية منها .
٢٢ ــ شرح لائحة العاملين فى القطاع العام .
٢٣ ــ الادارة العمالية فى الدول النامية .
٢٤ ــ الديمقراطية الاشتراكية .
٢٥ ــ الأمن الصناعى ((الكتاب السادس)) .

I

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
فرع الصحافة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
فرع الصحافة